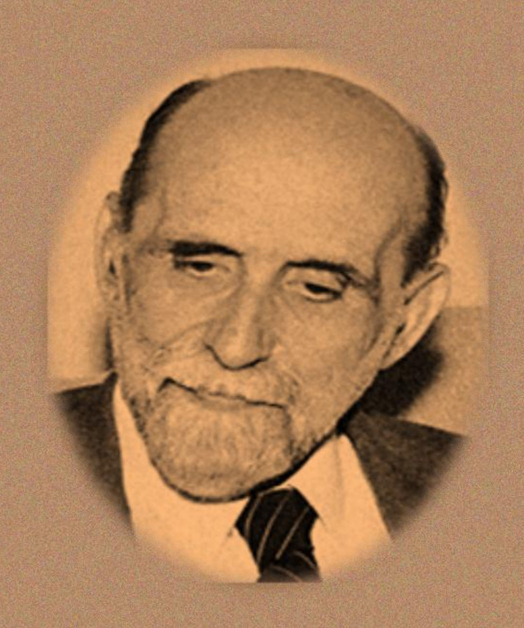
1956

مكتبة نوبل

خوان رامون خمينث

أنا وحماري



ترجمة :الدكتور لطفي عبد البديع

علي مولا



أنا وحماري



مكتبة نوبل

اسم المؤلف . خوان رامون خمينث	Author :Juan Ramon Jimenez
عنوان الكتاب : أنا وحماري	Title :Platero and I
ترجمة : الدكتور لطفي عبد البديع	Translator: Dr.Loutfi Abd Al Badeeh

الناشر : المدى
الطبعة الأولى : دار المعارف ١٩٥٩
الطبعة الثانية : دار المدى خاصة ٢٠٠٠

Al- Mada : P. C.
First Edition :1959
Second Edition :2000

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O Box · 8272 or 7366
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail al - madahouse @ net sy البريد الالكتروني

١٩٥٦
مكتبة نوبل

خوان رامون خمينث

أنا وحماري

ترجمة

الدكتور لطفي عبد البديع



١٩٥٦

مكتبة نوبل

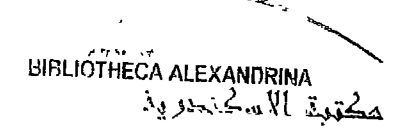
خوان رامون خمينث

أنا وحماري

ترجمة

الدكتور لطفي عبد البديع





مقدمة

كتاب «أنا وحماري» للشاعر خُوان رامُون خِمينِث الذي نقدمه اليوم إلى قراء العربية قمة من قمم الأدب الإسباني ، دعا فيه الشاعر حماره الفضي المسمى بلاتيرو إلى التأمل معه في الوردة والفراشة ، والمسيل والتلّ ، والشفق والغروب ، وطاف به في قريته «مُغير» بين ملاعب صباه ليشهد بؤس البائسين وفرح الفرحين ، ولينظر ما في الأحياء والكائنات من صور التقطها خيال شاعر طابق في كيانه بين الشعر والحياة .

* * *

ولد خوان رامون سنة ١٨٨١ في مُغِير إحدى قرى والبة وتقع في الجنوب الغربي من إسبانيا ، ونمت طفولته في بياض القرية الأندلسية التي تفتحت فيها أولى طاقاته الشعرية ، وانتقل إلى مدريد لأول مرة في سنة ١٩٠٠ ومعه شعر كثير بهر به أعلام الشعر في ذلك العصر من أمثال شاعر نيكاراغوا روبن داريّو قطب المدرسة الحديثة في الشعر ، وفرنسسكو فيليا سبيسا الشاعر الأندلسي الصداح ، ثم عاد إلى مغير وظل فيها إلى سنة ١٩١٢ رجع بعدها إلى مدريد مرة أخرى ؛ وتزوج في سنة ١٩١٦ زنوبيا كامبرُوني التي ترجمت شعر طاغور إلى اللغة الإسبانية .

وفي تلك الحقبة أقبل خوان رامون على مطالعة شعر الشعراء الفرنسيين والإنجليز والألمان مع إيثاره للرومانتيكيين منهم وكتب في المجلات الأدبية وغمر العالم الإسباني والعالم الأوربي بشعره وأكثر من الرحلة في أنحاء إسبانيا وفرنسا وغيرهما من البلاد الأوروبية ، ثم نشبت الحرب الأهلية وهو

في مدريد فانتقل إلى أمريكا اللاتينية وجعل يتنقل بين بلادها ويلقي المحاضرات في جامعاتها ويلوذ به شباب الشعراء الذين وجدوا في شعره قيثارة جديدة تدل على أستاذية أصيلة ، فسافر إلى بورتوريكو وإلى كوبا والأرجنتين وأقام زمناً في الولا يات المتحددة وقصد أورغواي ثم استقر في بورتوريكو التي توفي فيها سنة ١٩٥٧ .

وخوان رامون شاعر خلق حساسية جديدة للشعر انبعثت في سائر إنتاجه الذي ملأ عدة دواوين وكان لها أثر عميق في شعراء العالم الإسباني قاطبة ، وقد توجت حياته الشعرية بجائزة نوبل للآداب التي فاز بها سنة ١٩٥٦ .

وإذا كان هناك شاعر استطاع أن يبلغ بشعره الكمال الفني من حيث الموسيقى الداخلية والصفاء الكامل للشعر فهو خوان رامون خمينث الذي جعل من حياته شعراً ومن شعره حياة ، وهو لا ينتمي إلى مدرسة معينة من مدارس الشعر وإن كان قد استهل حياته متأثراً بالرمزية الفرنسية والمذهب الحديث الذي أصّله في العالم الإسباني روبين داريو ، إذ ينطلق على سجيته يلتقط ما في الكون والطبيعة من شعر يمتزج فيه الوجود العام بوجود الشاعر فتتراءى الطبيعة متأثرة بخلجات نفسه واهتزازات كيانه . فالشاعر يستهويه البحر كما تستهويه النار ويرى في الموت شبحاً يلاحقه في كل مكان يثير توتراً في ذاته القلقة المتطلعة دائماً إلى المجهول . ومثله الأعلى في الشعر تجرده من شوائب الكلمة الخطابية التي تعوق موسيقاه وتكدر صفو الغنائية التي تترقرق فيه حتى يكون ما سماه بالشعر العاري .

وخوان رامون لم تصرفه أحداث العصر وأزمات الساعة عن رسالته الشعرية الكبرى التي تتمثل في النظر إلى جوهر الأشياء لا عرضها ،

ففلسفته الشعرية تتغذى من الدائم لا المتغير ومن الثابت لا المتحول فهو طراز آخر يختلف عن معاصريه من أمثال فرانز كافكا ووليام فولكنر ومايكوفسكي ونيرودا ، شعاره المطابقة بين الشعر والطبيعة النقية ، وبين الشعر والحياة المجردة عن المشاغل الموقوتة ، فالحياة في جوهرها هي مجال عمل الشاعر الذي لا ينبغي أن تلتهمه دنيا الناس ، والشاعر بعكوفه على هذا الجوهر إنما ينقّي الحياة من شوائب البؤس ويرفعها إلى مستوى الجمال الكامل .

وكتاب «أنا وحماري» ليس بطله «بلاتيرو» ولا «خوان رامون» وإنما هو -على حد ما ذكر الناقد أنريك دياث كانيدو في كتابه «خوان رامون وشعره»- قرية الشاعر مغير باعتبارها كائناً حيًّا له شخصيته المتغيرة في كل ساعة وفي كل فصل وفي كل موقف ، فالكائنات والأشياء في القرية كأنها حوادث قصة تنبعث بها نفس شاعر حزين يغمره الشوق والحنين ، يرثي الطفل الأبله والكلب الأجرب والكناري المحتضر .

والكتاب ليس تاريخاً لحياة حمار ثرثار ينطقه قاصّ بحكمة أخلاقية تشبه «الذنب الجاف والرماد والريشة الساقطة» وإنما هو رمز اتخذه شاعر أثره بقلبه على إنسان لا روح فيه .

وكان من أثر الروح الإنسانية التي تسري في فصول الكتاب أن خلدت ذكرى بلاتيرو في العالم الذي عرفه ، وما أكثر اللغات التي ترجم إليها ، وقد بلغ من شيوعه أن وضعت نسخة للعميان في الولايات المتحدة على طريقة بريل ، وأن صنعت لبلاتيرو تماثيل ودمى من الورق والقش والجص فصار بلاتيرو كائناً عالميًّا له تاريخه في مختلف الأمم والشعوب . وبعد فها هوذا «أنا وحماري» في لغة الضاد وقد وضعت فيه من نفسي مثل ما وضع الشاعر ؛

فترجمة مثل هذه المرثية أو هذا الديوان الشعري المنثور تمثّلٌ لنفس شاعر والتقاط لصوره السماوية الطائرة وليس هذا بالأمر الهين ، وعسى أن أكون قد وفقت .

لطفي عبد البديع

في ذكرى

إجديليا

المجنونة المسكينة

بشارع دل سول

التي كانت تبعث إلي بالتوت والقرنفل

في ذكرى

إجديليا

المجنونة المسكينة

بشارع دل سول

التي كانت تبعث إلي بالتوت والقرنفل

بيان للكبار الذين يقرؤون هذا الكتاب للأطفال

هذا الكتاب الموجز الذي يقترن فيه الفرح بالألم اقتران توأمين كأنهما أذنا بلاتيرو كُتِب لـ . . . لا أدري لمن . . . . . . لمن تكتب لهم نحن معشر الشعراء الغنائيين . . والآن وهو موجه إلى الأطفال لن أحذف منه ولن أزيد عليه فاصلة . ما أجمل هذا .

يقول نوفالس* : حيثما كان الأطفال كان العصر الذهبي ، ومن أجل هذا العصر الذهبي الذي كأنه جزيرة روحية هبطت من السماء يسير قلب الشاعر ويرسو فيها على هواه ، فليس أحب إلى نفسه من أن يبقى فيها ولا يهجرها إلى الأبد .

يا جزيرة الرحمة والنضارة والسعادة ، والعصر الذهبي للأطفال ، طالما وجدتُك في حياتي وهي بحر من الألم ، ووهبتْني نسمتك قيثارة عالية لا معنى لها أحياناً ، كأنها ترنيم القنبرة في شمس الشروق البيضاء .

الشاعر

(*) فردريك نوفالس شاعر ألماني (١٧٧٢-١٨٠٢) خير من يمثل الشعر الغنائي الرومانتيكي (ل-ع)

بيان للكبار الذين يقرؤون هذا الكتاب للأطفال

هذا الكتاب الموجز الذي يقترن فيه الفرح بالألم اقتران توأمين كأنهما أذنا بلاتيرو كُتِب لـ . . . لا أدري لمن . . . . . . لمن نكتب لهم نحن معشر الشعراء الغنائيين . . والآن وهو موجه إلى الأطفال لن أحذف منه ولن أزيد عليه فاصلة . ما أجمل هذا .

يقول نوفالس* : حيثما كان الأطفال كان العصر الذهبي ، ومن أجل هذا العصر الذهبي الذي كأنه جزيرة روحية هبطت من السماء يسير قلب الشاعر ويرسو فيها على هواه ، فليس أحب إلى نفسه من أن يبقى فيها ولا يهجرها إلى الأبد .

يا جزيرة الرحمة والنضارة والسعادة ، والعصر الذهبي للأطفال ، طالما وجدتُك في حياتي وهي بحر من الألم ، ووهبتْني نسمتك قيثارة عالية لا معنى لها أحياناً ، كأنها ترنيم القنبرة في شمس الشروق البيضاء .

الشاعر

(*) فردريك نوفالس شاعر ألماني (١٧٧٢-١٨٠٢) خير من يمثل الشعر الغنائي الرومانتيكي (ل-ع)

١

بلاتيرو



بلاتيرو صغير كث الشعر رقيق ، بضٌّ من ظاهره حتى ليجوز أن يقال إنه كله من القطن لا عظام فيه ، كل ما هنالك أن مرايا عينيه اللتين من الكهرباء السوداء صلبة كجعرانين من زجاج أسود .

أتركُه طليقاً فيمضي إلى المرج ويداعب بفمه الأزهار الوردية والسماوية والصفراء . . ولا يكاد يبلها .

أدعوه بعذوبة «بلاتيروا» فيقبل نحوي في ركض مرح يبدو معه أنه يضحك ، وفي صلصلة مثالية لا أدري كنهها . . يأكل كلّ ما أعطيه فيستطيب البرتقال الحامض والأعناب المسكية كلها عنبر ، والتين البنفسجي بقطراته الزجاجية التي من العسل . .

رقيق مدلل كالطفل والطفلة . . لكنه قوي وصلب في باطنه كالحجر ؛
حين أمضي به أيام الآحاد في أزقة القرية ينظر إليه أبناء الريف ويقولون :
- فيه فولاذ . . .
فيه فولاذ . . . ، فولاذ وفضة قمرية معاً .

* * *

٣

الفراشات البيضاء



يهبط الليل بنفسجياً يغشاه الغمام ، وتتراءى خلف أبراج الكنيسة أضواء بنفسجية وخضراء ، ويصعد الطريق وهو مليء بالظلال والعوسج وشميم النبت والأناشيد والأعياد والرغبة ؛ وإذا برجل غامض على رأسه قلنسوة ومعه شوكة يكشف عن وجهه القبيح في ضوء لفافة التبغ ، ثم يهبط إلينا من كوخ حقير ضال بين أكياس الفحم ، فيضطرب بلاتيرو .

– هل معك شيء .

– انظر . . . فراشات بيضاء .

ويروم الرجل أن ينفذ شوكته الحديدية في السرج ولا أمنعه ، فأفتح الخرج ولا يرى شيئاً ، ويمضي الغذاء المثالي طليقاً بريئاً دون أن تدفع له عوائد أو رسوم . . .

٣

عبث الغروب

في شفق القرية حين ندخل أنا وبلاتيرو ، ونحن نرتعد من البرد في الظلام البنفسجي للزقاق الحقير الذي يطل على النهر الجاف ، يعبث الأطفال المساكين بأن يُفزع بعضهم بعضاً متظاهرين بمظهر الشحاذين ، فأحدهم يلقي كيساً على رأسه ، والآخر يقول إنه لايرى والثالث يتظاهر بالعمى .

ثم إنه في هذا التجاوب المفاجئ للطفولة يظن هؤلاء الأطفال بما في أرجلهم من أحذية ، وما عليهم من ثياب ، وما أعطتهم أمهاتهم من طعام أنهم أمراء فيقولون :

– أبي عنده ساعة من الفضة .

– وأبي عنده حصان .

– وأبي عنده بندقية صيد .

ساعة تُوقظ الفجر ، وبندقية لا تقتل الجوع ، وحصان يحمل إلى البؤس . . . ويأخذون في العدو بعد ذلك ، وفي غمرة السواد تنطلق طفلة غريبة ، تتكلم بطريقة غير التي يتكلم بها سواها ، فهي ابنة أخت «الطائر الأخضر*» وتغني بصوت خافت كأنه خيط من الزجاج المائي في الظلال

(*) لقب لإنسان من أهل القرية .

كما لو كانت أميرة :

أنا أرملة الكونت دي أورى . . . .

. .بلى بلى غنوا واحلموا أيها الأطفال المساكين ، فعما قريب حين يظهر صباكم سيفاجئكم الربيع ، كأنه شحاذ مقنع في الشتاء . .

هيا بنا يا بلاتيرو . . . .

٤

الكسوف

وضعنا أيدينا في جيوبنا دون أن نشاء ، وأحست الجبهة بالاهتزاز الرقيق للظلّ الجديد على نحو ما يكون المرء في غابة كثيفة من أشجار الصنوبر ، وراحت الدجاجات تلوذ الواحدة تلو الأخرى بالدرج الذي يقيها ، ومن حول ذلك اتشحت خضرة الريف بثوب الحداد كما لو كان الحجاب البنفسجي للمذبح يضمها ، وتراءى البحر البعيد أبيض اللون ، وبعض النجوم تتألق وهي شاحبة ذابلة . تُرى كيف تتشكل أسطح الدور من بياض إلى بياض! أما نحن الذين كنا فيها فقد جعلنا نصيح بأشياء تتفاوت في الحسن والقبح ، والصغر والظلام ، في الصمت المحدود لهذا الكسوف .

كنا ننظر إلى الشمس بكل شيء ، بمنظار المسرح والمجهر ذي البعد والقارورة وقطعة الزجاج المعتم ، كما كنا ننظر مس جميع الجوانب : من الشرفة وسلم الفناء والنافذة التي في مخزن الحبوب وشباك البهو من خلال زجاجه ذي الحمرة القاتمة والزرقة . . .

ولما غابت الشمس ، وكان كل شيء قبل مغيبها يجعلها أكبر من حقيقتها مرتين وثلاث مرات ومائة مرة ، ويزيدها حسناً بما يتداخل فيها من ضوء وذهب ، تركها كل شيء ، فيما عدا فترة الشفق الطويلة ، وحيدة بائسة كما لو كانت استبدلت النحاس بدينار الذهب أولاً ثم بالفضة ثانياً ، وكانت القرية أشبه بكلب صغير متثاقل من الكسل لا يُغيّر من وضعه ؛ ما أشد حزن الشوارع والأفنية والبرج وطرق الجبال وما أصغرها!! .

وكان بلاتيرو في الفناء كأنه حمار أقل من حقيقته ، مختلف ، متطامن ، حمار آخر . . . .

٥

رِعدة



القمر يمضي معنا كبيراً
مستديراً صافياً ، وفي المروج
الحالمة تتراءى عنزات سوداء
لا تكاد تبصرها العين بين
العوسج . . . .

كأن أحداً يتوارى عن
طريقنا . . . . وعلى السياج
شجرة هائلة من أشجار اللوز
يتوِّجها الزهر والقمر ، وقد
لفت تاجها في سحابة
بيضاء ، تحضن الطريق المرصّع
بنجوم شهر مارس . . . رائحة
البرتقال النفاذة . . . رطوبة
وسكون . . . وادي النفّاثات
في العقد . . .

- يا بلاتيرو . . . ما
أشد البرد! .

لكن بلاتبرو ، ولا أدري إن كان ذلك من خوفه أو من خوفي ، يركض

وينزل في المسيل ويطأ القمر ويمزقه إرباً ، وكأنما يحدق به سرب من الأزهار البلّورية الصافية تريد أن تمسكه وهو يركض .

ويركض بلاتيرو مُصْعِداً وقد ضم مؤخره كأنه يخشى أن يدركه أحد ، ويحس في أثناء ذلك بالفتور الرقيق للقرية التي تقترب ، ولكنه فيما يظهر فتور لا يصل إليه قط . . .

٦

المدرسة

لو أنك يا بلاتيرو جئت مع بقية الأطفال إلى المدرسة لتعلمت الألف والباء والتاء ولكتبت رسم الحروف ، إذن لعرفت كثيراً مثلما عرف الحمار المصور من الشمع –صديق عروس البحر ، الذي يخيل إلى من يراه أنه متوّج بالزهر ، للبلّور الذي يتراءى فيه ، فكله ورد ولحم وذهب في عنصره الأخضر ، لعرفت إذن يا بلاتيرو أكثر مما يعرف طبيب «بالوس» وراهبها .

ولكن مع أنك لا تتجاوز أبعة أعوام فأنت كبير قليل الرقة ، ثم على أي كرسي ستجلس ، وعلى أي نضد ستكتب ، وأي ورقة وقلم سيكفيانك ، وفي أي مكان من الفناء سترتل تراتيل الشهادة؟ قل! .

كلا إن «دنيا دومتيلا» وعليها مسوح بنفسجية كمسوح يسوع ، وتشد وسطها مثل «ريس» السمّاك ، قد تحملك على أن تجثو على ركبتيك ساعتين في ركن من أركان بهو الموز أو لعلها تضربك بعصاها الطويلة التي في يدها ، أوتأكل مربى السفرجل التي معك لتتناولها بعد الظهر ، أو تضع ورقة محترقة تحت ذيلك فتحمر أذناك وتسخنان كما يقع لأذني ابن الزارع الشقي حين تمطر السماء . . .

كلا يا بلاتيرو كلا ، تعال أنت معي ، فسأعلمك الزهر والنجوم ، ولن يضحكوا منك كما يضحكون من طفل أحمق ، ولن يضعوا لك ، كما لو

كنت ما يسمونه حماراً ، الطاقية ذات العينين الكبيرتين اللتين تحدق بهما النيلة والمغرة* ، كالعيون التي في قوارب النهر ، مع أذنين ضعف أذنيك . . .

* المغرة التراب الاحمر وقد آثرنا ابقاء اللفظ على صورته في الاسبانية almagra لاشتقاقه من العربية (ل-ع)

٧

المجنون



لا بد أني وأنا متشح بثياب الحداد، ولحيتي السوداء الكبيرة، وقبعتي السوداء القصيرة، كنت ذا منظر غريب وأنا أركض ممتطياً صهوة بلاتيرو الليِّنة الرمادية.

ولما كنت عند الكرم وأخذت أخترق الشوارع الأخيرة، البيضاء من الجير مع الشمس، إذا بأطفال الغجر وهم صغار الأجسام سمر الوجوه، قد خرجوا من أسمالهم الخضراء والحمرا والصفراء، فبدت بطونهم بلونها الذي لوحته الشمس، يعدون خلفنا ويصيحون: المجنون! . المجنون! . المجنون! .

وكان بين يدينا الريف بخضرته، وقبالة السماء الهائلة الصافية بلونها الأزرق المتقد تنفتح عيناي –وما أبعدها عن سمعي!– لتتلقيا في هدوئهما

هذا السلام الذي لا اسم له ، وهذا الجلال المتسق الإلهي الذي يعيش في لانهاية الأفق . . . .

وتبقى هناك في الآفاق العالية أصوات حادة ، مسترسلة متقطعة نفاذة ضجرة :

الجـ . . . . .نون! الجـ . . . . .نون!

٨

يهوذا

لا تفزع يا صاح : ماذا دهاك؟ هيا ولتهدأ نفسك . . . هل يقتلون يهوذا أيها الأبله .

بلى إنهم يقتلون يهوذا ، واحد معلق في «المنتريّو» وثان في شارع «امدْيُو» وثالث هناك في «البوثُودِل كونْسِيخُو» ؛ رأيتهم مساء أمس وكأنما ثبّتتهم قوة سماوية في الهواء ، لا يكاد يُرى في الظلمة الحبل المزدوج الذي يمسكهم على الشرفة .

تُرى أي خليط عجيب من القبعات العريضة وأكمام النساء وأقنعة الموظفين والأشياء التافهة تحت النجوم الجليلة . والكلاب تنبحهم دون أن تذهب والخيول الخائفة لا تريد أن تمضي من تحتهم . . .

والآن تقول النواقيس يا بلاتيرو إن حجاب المذبح الأكبر قد تقطع ، لا أظن أن قد بقيت في القرية بندقية لم تُطلق على يهوذا ، وإلى هنا تصل رائحة البارود . طلقة . أخرى : أخرى! .

. . .يهوذا وحده يا بلاتيرو هواليوم النائبة أو المعلمة أو الغريب أو محصل الضرائب أو العمدة أو الولاّدة ، وكل امرئ يطلق بندقيته الرعديدة قد صار طفلاً في هذا السبت المقدس ، يطلقها على من يحقد عليه في تراكب من حروب ربيعية مزعومة فيها عجب وغموض .

٩
التين

كان الفجر مغشى بالضباب قاسياً ، ولكنه مواتٍ لثمرات التين ، فلما كانت الساعة السادسة مضينا إليها لنأكلها في «لاريكا» .

كان الليل نائماً تحت أشجار التين المعمرة مئات السنين بجذوعها الرمادية التي تتصل بأطرافها القوية في الظل البارد كأنها تحت رداء ، وكانت الأوراق العريضة التي وضعها آدم وحواء تخزن نسيجاً رقيقاً من لؤلؤ قطر الندى الذي تميل معه خضرتها الناضرة إلى شحوب ، ومن هنالك جعل يتراءى بين الياقوتة السفلى الفجر وهو يصبغ بلونه الوردي حجب المشرق التي لا لون لها . . . .

. . . .انطلقنا كالمجانين لنرى أينا يسبق إلى كل شجرة ، فأخذ «روثيلّلو» معي الورقة الأولى من إحداها في ضجة من الضحكات والهزات «هذا نصيبك» ووضعت يدي معه في قلبه ، وكان الصدر الشاب يصعد ويهبط كأنه موجة صغيرة أسيرة . أما «أديلا» ولا تكاد تحسن العدو لبضاضتها وصغرها فكانت تغضب من بعيد . ثم انتزعتُ لبلاتيرو بضع ثمرات ناضجة ووضعتها له على جذع عتيق حتى لا يضيق صدره ولا يضجر .

واستهلت النزاع «أديلا» وقد تملكها الغضب لتخبّطها وجهلها ، فكان الضحك في فمها ، والدموع في عينيها ، ثم ألقت بثمرة على جبهتي . ومضيت أنا و«روثيللو» نأكل التين لا بالفم بل بالعيون والأنف والأكمام وتفاحة آدم ، مع صياح حاد مستمر كان يسقط مع الثمرات المنطلقة هنا

وهناك على الكروم الجديدة في الصباح ، ولما أعطبت ثمرة لبلاتيرو كاد يجن من الفرح ، ولما رأيته وهو البائس أعجز من أن يقدر على الدفاع عن نفسه أو الرد نصرته وتوليت أمره ، ثم ما لبث أن اخترق الهواء الصافي طوفان لين أزرق في جميع النواحي كأنه طلقة المدفع السريعة .

هنالك انطلق ضحك مزدوج هابط ومكدود ليعبّر من الأرض عن استسلام الأنثى .

١٠
صلاة الغروب!

انظر يا بلاتيرو! ما أكثر الورود التي تتساقط في كل جانب: ورود زرقاء وورود بيضاء لا لون لها . . . حتى جاز أن يقال إن السماء تساقطت وروداً انظر كيف تفيض جبهتي وكتفيّ ويديّ بالورود . . . ماذا أفعل بتلك الورود الكثيرة؟

– لعلك تعلم من أين هذا النبات الرقيق الذي لا أدري مصدره، وهو في كل يوم يجمِّل المنظر ويضفي عليه اللون الوردي والأبيض والسماوي– ورود ثم ورود– حتى لكأنها لوحة إنجيليكو* التي رسم فيها الفردوس وهو راكع ويظن الظان أن الملائكة يلقون من السماوات السبع الورود على الأرض؟

وتبقى الورود في البرج وفي السقف وفي الأشجار، كما لو كانت سحابة رقيقة مختلفة الألوان. انظر: تصنع بزينتها كل قوة ناعمة. ورود ثم ورود، ثم ورود.

يخيل إلى المرء يا بلاتيرو أنه حين يتردد صوت الناقوس مؤذناً للصلاة تفقد حياتنا قوتها اليومية، وأن قوة أخرى من الداخل أسمى وأدوم وأصفى تجعل كل شيء يتصاعد كنافورات الرحمة إلى النجوم التي تتقد بين الورود . . . ورود أخرى . . . . وعيناك اللتان لا تراهما يا بلاتيرو وترفعهما إلى

(*) فرا إنجيليكو لقب جيوفاني دا فيسولى. ويلقب أيضاً برسام الملائكة. رسام توسكاني تتسم أعماله برقة الإلهام والتلوين الدي لا يضارع (١٢٨٧–١٤٥٥) (ل–ع).

السماء بتحنّن وردتان جميلتان .

١١
المقبرة

إذا متّ قبلي فلن تُحمل يا بلاتيرو في عربة المنادي إلى المخاضة المتسعة ولا إلى المستنقع الذي في طريق الجبال ، شأن غيرك من الحمير المساكين والخيول والكلاب التي ليس لها من يحبها ، لن تمزق الغربان أضلاعك وتدميها فتصير كهيكل القارب فوق الغروب الأحمر القاتم ، وتكون المشهد القبيح للمسافرين في التجارة ممن يذهبون إلى محطة «سان خوان» في عربة الساعة السادسة ؛ ولن تكون ، وقد تورمْتَ وجَمُدْتَ في المحارات المطحونة في الهوة ، مثاراً لفزع الأطفال الخائفين المتطلعين حين ينظرون من حافة الطرق ويلوذون بالأغصان ، وحين يخرجون في أمسيات الآحاد إبان فصل الخريف ليأكلوا الصنوبر الذي أنضجته الشمس في الشجر . عش هادئاً يا بلاتيرو ، سأدفنك عند سفح شجرة الصنوبر الكبيرة يحيط بها البستان الذي يروقك كثيراً ؛ ستكون بجنب الحياة المرحة الصافية ، فالأطفال يلعبون والبنات يحكن الثياب في مقاعدهن إلى جانبك ، وستتعلم الأشعار التي تلهمني إياها الوحدة ، وستسمع الصبايا وهن يغنين حين يغسلن ما معهن في حقل البرتقال ، وسيكون صوت الناعورة متعة لسلامك الدائم وبرداً .

وستضع لك العصافير والصفارى والبلابل في تاج الشجرة الأخضر سقفاً قصيراً من الموسيقى بين نومك الهادئ وسماء مغير اللانهائية ذات الزرقة الدائمة .

١٢

الشوكة



دخل بلاتيرو مرعى الخيل وهو يعرج فألقيت بنفسي على الأرض . . . .

ولكن ماذا دهاك يا صاح؟

فرفع بلاتيرو يده اليمنى قليلاً وأراني باطن رجله دون جهد أو ثقل ودون أن يمس بحافره الرمل المتقد في الطريق .

ونظرت إليه متوسلاً أكثر مما يتوسل إليه طبيبه «داربون» العجوز ، وطويت يده وأريتُه باطن رجله الأحمر وقد انغرزت فيه شوكة طويلة من شوك البرتقال السليم كأنها خنجر مستدير من الزمرد ، وأخذت أنزع الشوكة منه وقد تألمت لألمه ، ثم مضيت به إلى مسيل السوسن الأصفر لتغسل المياه الجارية جرحه بلسانها الطويل النقي .

وواصلنا السّير بعدئذ إلى البحر الأبيض ، أنا قدامه وهو من ورائي ، ولايزال يعرج ويضرب على ظهري ضرباً رقيقاً . . .

١٣
القنابر

ها هي ذي يا بلاتيرو سوداء مرحة في عشها الرمادي من لوحة عذراء «مونتيمايور» وهو عش مبجّل في كل آن ؛ والشقية كأنها مفزّعة ؛ كأن البائسة قد ضلت هذه المرة كما ضلت الدجاجات في الأسبوع الماضي وهي تلوذ بأعشاشها حين انكسفت شمس الساعة الثانية ؛ وكان من مظاهر دلال الربيع هذا العام أن استيقظ مبكراً ، ولكنه استبقى عُرْيَه الرقيق وهو يرتعد في فراش مارس الذي يغشاه الضباب ؛ ويحزن النفسَ رؤية أزهار البرتقال العذراء تجف مع براعمها .

ها هي ذي القنابر يا بلاتيرو ولا تكاد تُسمع كما في الأعوام الأخرى حين يحييها اليوم الأول لوصولها ويثير اهتمامها ، فتتحدث من غير انقطاع في تغريدها المتوالي ؛ تقص على الأزهار نبأ ما شاهدته في إفريقية ، وتروي خبر رحلتيها في البحر وهي مستلقية في الماء وقد اتخذت من جناحها شراعاً ، أو هي في مؤخرة القوارب ؛ كما تتحدث عن غروب آخر وعن فجر آخر وعن ليال أخر تلمع فيها النجوم . . . . لا يعرفن ماذا يفعلن ، يطرن وهن صامتات ضالات كما يمشي النحل حين يطؤه طفل في الطريق ، لا قبل لهن بأن يصعدن أو يهبطن في الشارع الجديد في خط مستقيم متصل ، مع تلك الزينة في نهايته ؛ كما لا يستطعن أن يدخلن في أعشاشهن بالآبار ولا أن يقفن على أسلاك التلغراف التي تهب عليها ريح الشمال بجانب الحواجز البيضاء في اللوحة المعهودة للقنابر وهن حاملات الرسائل . . .

توشك أن تموت القنابر من البرد يا بلاتيرو!

١٤
الزبية

حين أذهب لرؤية بلاتيرو في وقت الظهيرة يوقد شعاعُ الشمس الشفاف في الساعة الثانية عشرة خالاً كبيراً من الذهب في ظهره الفضي الغض ؛ وتحت بطنه في الأرض المظلمة بخضرتها المبهمة التي تتلون بلون الزمرد يمطر السقف العتيق دنانير من النار .

و«ديانا*» الراقدة بين أرجل بلاتيرو تأتي إلي وهي ترقص وتضع يديها في صدرها راغبة في أن ترطب فمي بلسانها الوردي ، والعنز التي صعدت في أعلى مكان بالمذْود تنظر إليّ متطلعة وقد حنت رأسها الرقيق من جانب ومن آخر في حركة نسائية ؛ وبلاتيرو الذي حياني بنهيق مرتفع قبل دخولي يريد في أثناء ذلك أن يقطع حبله ، وهو صلب ومرح في الوقت ذاته .

وعند الكوة التي تأتي بكنز السمت الوضّاء بقوس قزح أذهب لحظة مع شعاع الشمس في أعلى إلى السماء من تلك القصيدة ، ثم أصعد بعد ذلك على حجر من الأحجار وأنظر إلى الريف . والمنظر الأخضر يسبح في الضوء المزهر الحالم ؛ وفي الزرقة الصافية التي يحيط بها جدار الفلَك يدق ناقوس طليق حلو .

(*) كلبة

١٥

خِصاء المهر

كان أسود ، وأزهار عباد الشمس أرجوانية وخضراء وزرقاء وكلها فضية ، كالخنافس والغربان ، تتوهج في عينيه أحياناً نار حية ، كالتي في موقد «رامونا» بائعة الكستناء في ميدان «الماركيز» ، يا لدقات ركضه القصير وهو يدخل طريق الرملة ، كأنه مبارز ، من جوانب الشارع الجديد! ما أبرعه وأنشطه وما أشد حدته وهو برأسه الصغير وأعضائه الدقيقة!

ومر في عظمة بباب معصرة الخمر وهي أشد سواداً منه في الشمس الملونة للحصن الذي يعد النهاية المضيئة للرواق ، ومضى منطلقاً في مشيه وهو يلعب بكل شيء ، ثم تجاوز جذع شجرة الصنوبر عند عتبة الباب وغزا الفناء الأخضر بالفرح وضوضاء الدجاج والحمام والعصافير ؛ وكان في انتظاره هناك أربعة أشخاص أذرعهم ذات الشعر متقاطعة على صدورهم ، حملوه في جهد تحت شجرة الفلفل وبعد صراع شديد قصير المدى ، فيه حنان أول الأمر ، وأعمى بعد ذلك جذبوه فوق المزبلة ، ثم أخذ «داربون» ، وقد جلسوا جميعاً ، فوقه ، ينجز عمله ، فوضع حداً لرشاقته الحزينة الساحرة .

جمالك النادر يجب أن يذهب معك

وإذا بقي كان القاضي عليك

كما يقول شكسبير لصديقه :

وهكذا صار المهر الذي أصبح حصاناً ، طرياً ينضح بالعرق ذابلاً

وحزيناً ، فرفعه رجل واحد ، ثم نقله برفق ، بعد أن غطاه بغطاء ، إلى الشارع .

يا للسحابة المسكينة الباطلة ، يا لشعاع الأمس وهو فاتر وجامد!

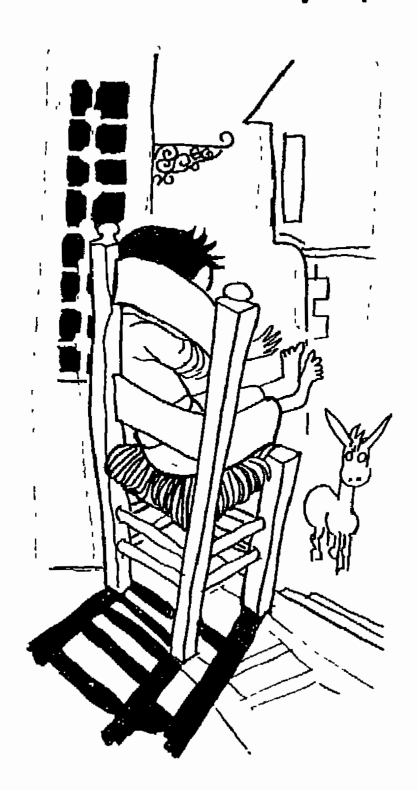
مضى كأنه كتاب لا غلاف له ، ويخيل إلى من يراه أنه ليس فوق الأرض ، فبين الحدوة والأحجار عنصر جديد يعزله ويجرده من المنطق كأنه شجرة لا أصل لها ، وذكرى في الصباح العنيف الكامل المستدير ، صباح الربيع .

١٦
المنزل المقابل

لم يكن أمتع يا بلاتيرو في طفولتي من المنزل المقابل لمنزلي الأول في شارع «لاربيرا» ، منزل «أرّبورا» السقاء ، بفنائه الجنوبي الذي تذهبّه الشمس دائماً ؛ ومنه كنت أطل على والبة مشرفاً عليها من الطابية ؛ وربما تركني القوم أذهب ساعة أنا وابنة «أربورا» التي كانت تبدو لي حينئذ امرأة ، وهي الآن مع أنها متزوجة ، لم تتغير في عيني عما كانت عليه وقتذاك وكانت تعطيني الأترج والقُبَل . . ثم في الشارع الجديد الذي صار شارع «كانوفاس» «ثم فراي خوان بيريث» ، منزل «دون خوسيه» حلواني إشبيلية الذي كان يبهرني بحذائه المصنوع من جلد المعز الذهبي ، والذي كان يضع في صبارة بهوه قشر البيض ، وكان يطلي أبواب الدهليز باللون الأصفر الكناري مع أشرطة زرقاء وكان يأتي إلى منزلي أحياناً ويعطيه أبي نقوداً وليس له من حديث معه سوى عن الزيتون . . . . ما أكثر الأحلام التي هدهدت فيها طفولتي تلك الفلفلة التي كنت أراها من شرفتي مليئة بالعصافير فوق سطح منزل دون خوسيه (وكانتا شجرتي فلفل لم أجمع بينهما قط في بصري ، إحداهما تلك التي كنت أراها وتاجها تغمره الريح أو الشمس من غرفتي ، والأخرى تلك التي كنت أراها في فناء دون خوسيه من جذعها . . . .) .

ما أمتع ساعات العصر الصافية والأمسيات المطيرة للمنزل المقابل عند كل تغيير طفيف في كل يوم وفي كل ساعة ، وما أعذب النظر إليها من شباكي ومن نافذتي ومن شرفتي في سكون الشارع .

١٧
الطفل الأبله



كلما عدنا إلى شارع «سان خوسيه» وجدنا الطفل الأبله عند باب منزله جالساً في كرسيه ينظر إلى الرائحين والغادين ، كان طفلاً من أولئك الأطفال التعساء الذين لم تتأتّ لهم قط نعمة الكلمة ولا نعمة الرحمة ، كان طفلاً فرحاً تُحْزِن رؤيته ، وهو كل شيء لأمه وليس شيئاً للآخرين .

ولما هبت ذات يوم على الشارع الأبيض تلك الريح الخبيثة السوداء لم أرَ الطفل عند بابه ، وإذا بطائر يغرد عند عتبة الباب المنعزلة ، فتذكرت حينئذ «كورُّوس*» الأب لا الشاعر ، حين بقي من غير طفله وسألته عنه فراشة

(*) مانويل كورروس انريكس . شاعر إسباني يكتب باللغة الجليقية اشتهر بشعره الغنائي وأنغامه العاطفية (١٨٥١-١٩٠٨) ل-ع .

جليقية .

فراشة أجنحتها مذهّبة . . .

والآن وقد عاد الربيع أفكر في الطفل الأبله الذي ارتفع من شارع «سان خوسيه» إلى السماء ، ولعله جالس في كرسيه بجانب الأزهار الوحيدة وهو يرى بعينيه ، وقد فتّحها مرة أخرى ، السير الذهبي لأمجاد السموات .

١٨
الشبح

كانت ألذ متعة «لأنيلْيا لامنتيكا» التي كان شبابها الغض الهارب أشبه بالراعي الذي لا تنتهي مسراته أن تلبس على صورة الشبح ، فكانت تلف جسمها كله بحلاوة ، وتطلي وجهها السوسني بالدقيق ، وتضع في أسنانها فرائد الثوم .

وحين كنا نفرغ من العشاء ونحن ، بين اليقظة والنوم ، جالسين في القاعة ، تخرج علينا فجأة من السلم الرخامي وهي تمسك بيدها شمعداناً متقداً ، وتسير بخطى بطيئة وهي صامتة لا تتكلم . وكانت وهي على هذه الصورة كأن عريها قد صار رداء . بلى ، كان مما يثير الفزع صورتها الجنائزية التي تأتي بها من الظلمات العليا ، ولكن في الوقت ذاته كان مما يفتن فيها بياضها المجرد مع مالا أستطيع تصويره من الإفراط الحسي . . .

لن أنسى قط يا بلاتيرو تلك الليلة من ليالي شهر سبتمبر وكانت العاصفة تخفق فوق القرية منذ ساعة كأنها قلب مريض ، وهي تصب الماءوالبرد بين الإصرار اليائس للرعد والبرق ففاض الجب وغرق البهو ، ومر آخر الأصحاب : عربة الساعة التاسعة والأرواح وساعي البريد . . . مضيت وأنا أرتعد لأشرب في غرفة الطعام ؛ وفي الخضرة البيضاء للرعد رأيت شجرة الكافور التي لآل «فيلارد» وقد سقطت تلك الليلة وارتمت فوق سطح الطنف .

وما شعرنا إلا وجلبة جافة مفزعة ، كأنها الظل لصيحة ضوء ، تركتْنا في عمى وهزت المنزل ؛ ولما عدنا إلى الواقع كان كل منا في مكان غير الذي كان فيه منذ لحظة ، وكأن كلا منا كان وحده دون غاية ودون إحساس

بعاطفة الآخرين ، وكان أحدنا يشكو من ألم في رأسه وآخر يتوجع من آلام عينيه ، وثالث من مرض في قلبه . . . ثم أخذنا نعود شيئاً فشيئاً إلى أماكننا .

وابتعدت العاصفة وكان القمر ، وهو بين سحب هائلة تنشق من أعلى إلى أسفل ، يوقد الماء في البهو بالبياض ، وكنا جميعاً ننظر إلى ذلك كله ، وكان الكلب «لورد» يروح ويغدو إلى سلم الفناء وهو ينبح بجنون ، تبِعْنا . . بلاتيرو وإذا أسفل الدار إلى جانب زهرة الليل المبللة التي كانت تفوح برائحة تزكم الأنف ، «بأنيليا» وهي في هيئة الشبح ميتة ولا يزال الشمعدان متقداً في يدها السوداء من الشعاع .



١٩

مشهد أرجواني

القمة . هنالك الغروب كله أرجواني ، مجروح بزجاجه الذي يسيل منه الدم في كل مكان ؛ وفي روائه شجرة الصنوبر الخضراء تثور وتتلون باللون الأحمر ؛ والأعشاب والأزهار المتقدة الشفافة تعطر اللحظة الجليلة بإكسير مبلل ، نفاذ ومضيء .

ولبثت مذهولاً في الشفق . أما بلاتيرو وقد ملأ لون الغروب الأرجواني عينيه السوداوين . . . فمضى على مهل إلى غدير مياه ذات ألوان حمراء ووردية وبنفسجية وأغرق فمه برقة في المرايا التي يخيل إلى المرء أنها تسيل حين يمسها ، وكأنما ستدفق في حنجرته الهائلة مياه قاتمة من الدم .

المكان معروف غير أن اللحظة تنيره وتجعله غريباً أثريّاً يعج بالضوضاء ، بحيث يجوز أن يقال في كل ساعة إننا بسبيل أن نكتشف قصراً مهجوراً . . . المساء يتطاول إلى ما وراءه ، والساعة ، وقد اكتسبت الخلود ، لا نهائية هادئة لا يحس بها أحد . . هلم يا بلاتيرو! .

٣٠

الببغاء

كنا نلعب مع بلاتيرو والببغاء في بستان صاحبي الطبيب الفرنسي حين جاءت إلينا من أسفل الطريق امرأة في مقتبل العمر مضطربة قلقة ، وقبل أن تصل إلينا ، وهي تتطلع إليّ بنظر أسود فيه كآبة ، سألتني :

– أيها السيد هل الطبيب موجود هنا؟

وكان يتبعها أطفال هيئتهم رثة ينظرون في كل لحظة ، وهم يلهثون ، إلى أعلى الطريق ، وخلفهم رجال يحملون رجلاً مصفراً متهالكاً . إنه صياد مُسْتَخف من أولئك الذين يصطادون الوعول في أرض «دُنّيانا» ، وقد انطلقت فيه رصاصة من بندقية عجيبة مشدودة بحبل ، والطلقة في ذراعه .

وأقبل صديقي على الجريح في حنان فنزع عنه خرقاً بالية ، وغسل عنه الدم وأخذ يتحسس عظامه وعضلاته ، وكان يقول لي من حين لآخر :

– لا شيء . . .

وسقط الماء ، وأخذت تقبل من والبة رائحة الغدير والقطران والسمك . . . وأشجار البرتقال تلف المغرب الوردي بقطيفتها القرمزية ؛ وفي إحدى شجرات اللّعل الخضراء أخذت الببغاء الخضراء والحمراء تروح وتجيء وهي ترمقنا بعينيها المستديرتين .

أما الصائد المسكين فقد ملأت الدموع الدافقة عينيه بالشمس وكانت تنطلق منه أحياناً صيحة مكبوتة ، والببغاء تقول :

– لا شيء . . .

ووضع صاحبي للجريح القطن والضمادات . . .

والإنسان البائس يصيح :

- أي أي!

والببغاء بين أشجار اللعل تقول :

لا شيء . . . . لا شيء . . . .

٢١

السطح

أنت يا بلاتيرو لم تصعد قط إلى السطح ، ولا تستطيع أن تتصور التنفس العميق الذي يتسع به الصدر حين يحس المرء إذ يطلع إلى السطح من الدرج الخشبي المظلم ، بأنه يحترق في شمس النهار الحامية ، وغارق في الزرقة كأنه في السماء ، وأعمى من بياض الجير الذي تطلى به -كما تعلم- الأرض الحجرية حتى تكون مياه السحب التي تندفق إلى الجب نقية صافية . ما أمتع السطح إن أجراس البرج تدق في صدورنا على مستوى قلبنا الذي يخفق بشدة .

وتتراءى من بعيد في الكروم المناجل وهي تلمع ، وتتطاير منها شرارة من فضة وشمس ، ومن هذا الموضع يشرف المرء على كل شيء ؛ على السطوح الأخرى والأفنية حيث يُشغل كل بما لديه : صانع الكراسي والرسام وصانع البراميل ، وشيات الأشجار في الأفنية مع الثور أو العنز ، والمقبرة التي تصل إليها أحياناً جنازة صغيرة مزدحمة سوداء لشخص لا يؤبه له ، والنوافذ التي تطل منها فتاة في قميصها وتمشط شعرها وهي غافلة تغني ، والنهر مع قارب لا ينتهي دخوله فيه ، والأهراء التي يردد فيها موسيقيٌّ منفرد الأنغام من ناي معه ، أو حيث الحُبُّ العنيف يجعل أصحابه بين صريح وأعمى ومغلق . . .

المنزل يختفي كأنه طابق أرضي ؛ ما أعجب الحياة الدارجة في الأرض حين ينظر إليها المرء من السقف الزجاجي : فالكمات والضوضاء والحديقة

ذاتها كلها رائعة الجمال منه! أما أنت يا بلاتيرو فإنك تشرب من الحوض دون أن تراني ، أو تلعب كالأبله مع العصفور أو السلحفاة!

٢٢
العودة

كلانا جاء يحمل من الجبال شيئاً : بلاتيرو يحمل المردوش* ، وأنا أحمل السوسن .

هبط مساء إبريل وكل ما في المغرب كان بلّوراً من الذهب ثم صار بلّوراً من الفضة ، قصة شعرية منطلقة ومضيئة صيغت من سوسن البلّور : ثم بعد قليل صارت السماء كأنها لازورد شفاف قد استحال إلى زمرد . فأبتُ وأنا حزين . . . كان لبرج القرية المتوج بالزليج الوضاء وهو يتراءى في الطريق الصاعد إلى الجبل في مطلع الساعة الصافية منظر أثري يأسر الألباب ، فكأنه عن كثب «الداخير**» تبدو من بعيد ، وقد لقي فيها حنيني إلى المدن الذي يشتد مع الربيع ، سلوى حزينة .

عودة . . . إلى أين؟ ومّ؟ ولم؟ . . غير أن السوسن الذي كنت أحمله كان أكثر فوحاً في لين الليلة الداخلة ، كان يفوح بعطر أكثر نفاذاً وغموضاً من الذي يخرج من الزهرة دون أن تُرى الزهرة ، زهرة كلها عطر يُسكر الجسد والروح من الظل المنفرد .

قلت -يا روحي ، يا سوسنة في الظل! ولم ألبث أن فكرت في بلاتيرو الذي نسيني كأنه بعض جسدي مع أنه تحتي .

(*) نبات يعرف بالصعتر البري واسمه بالإسبانية مشتق من العربية (ل-ع)

(**) منارة جامع إشبيلية الذي حُوِّل إلى كتدرائية وهي من روائع الفن الإسلامي في اسبانيا (ل-ع)

٢٣

الشباك المغلق

كنا كلما مضينا إلى معصرة «دِيِثْمُو» للخمر طُفْتُ بالجدار الذي في شارع «سان أنطونيو» وجئت إلى الشباك المطل على الحقول ، فكنت أضع وجهي على قضبان الحديد وأنظر يمنة ويسرة ، وأتطلع بعيني وأنا أحملق لأرى ما يستطيع بصري رؤيته ، وكان يخرج من أسفله طريق متآكل ضائع بين نبات القرّاص والخبازى ثم ينمحي وهو يهبط في شارع «لاس انجُسْتِياس» ، ويحيط به من أسفله طريق ضيق وعميق لم أمر به قط . . .

يا له من سحر أن يرى المرء خلف إطار الحديد الذي في الشباك الطبيعة والسماء اللتين في خارجه ، كأن سطحاً وجداراً من الوهم ينتزعان المنظر من بقية الأشياء ليتركاه وحده من خلال الشباك المغلق! . . ويتراءى الطريق بقنطرته وأشجار الحور التي يكسوها الدخان وفرن الآجر وتلال «بالوس» وسفن «والبة» وفي المساء تتراءى أنوار الميناء في «ريُوتِنْتُو» وشجرة الكافور العظيمة المتفردة التي لآل «أريوس» فوق الغروب البنفسجي الأخير . . .

قال لي الخمّارون وهم يضحكون إن الشباك لا مفتاح له . . . وكنت في أحلامي التي تقترن بالتباس الفكر حين يسري دون هدف معلوم ، أرى الشباك مطلاً على أروع الجنات وأجمل الحقول . . . وكما حاولت ذات مرة ، وأنا مؤمن بمنامي ، أن أهبط وأنا طائر على الدرج المرمري ، كنت أذهب ألف مرة مع الصباح إلى الشباك وأنا موقن بأني سأجد خلفه ما خلطه خيالي بالحقيقة لا أدري أردت ذلك أم لم أرده . . .

٢٤

دون خوسيه القسيس

ها هو ذا يا بلاتيرو يمضي مباركاً يتحدث بلسان عذب ، ولكن الشيء الملائكي في الواقع إنما هو أتانه ، السيدة .

أظنك رأيته ذات يوم في بستانه وعليه سراويل كسراويل الملاّح وقبعة عريضة ، وهو يقذف الصبية الذين يسرقون البرتقال بالأحجار والألفاظ ، ورأيت صاحب منزله «بالتزار» المسكين في أيام الجمع ألف مرة وهو يجرّ كسره في الطرقات كأنه نفّاخة في السرك حتى ينتهي إلى القرية ليبيع هناك مكانسه الحقيرة أو ليصلي مع الفقراء من أجل موتى الأغنياء . . . لا يبلغ إنسان مبلغه في سوء السمعة ، ولا يثير السماء بأيمانه أحد مثلما يثيرها .

والحق أنه يعلم من غير شك أو على الأقل هذا ما يقوله في صلاته التي تقام في الساعة الخامسة ، مكان كل شيء وهيئته هنالك . . . الشجرة والتّلعة والماء والريح والشمعة ، وكل أولئك ، في لطفه ولينه وجدته وصفائه وحيويته ، يبدو له مثلاً للفوضى والصلابة والبرودة والعنف والخراب ؛ وفي كل يوم تستقر أحجار البستان أثناء الليل في مكان غير مكانها وهي تنطلق في عداوة غاضبة على الطيور وغاسلات الثياب ، وعلى الأطفال والأزهار .

وعند الصلاة يتغير كل شيء ، فصمْتُ دون خوسيه يُسمع في صمت الريف ، فيلبس ثوبه ومسوحه وقبعته ؛ ودون أن ينظر إلى شيء يدخل القرية المظلمة وهو على أتانه البطيئة كأنه يسوع في الموت . . .

٢٥
الريف

يا لها من أضواء وعطور!
عجباً للمروج وهي تضحك!
وأناشيد الصباح وهي تتردد!
مقطوعة شعرية شعبية

يقض مضجعي وأنا نائم مؤرقُ الصيَّاح الشيطاني للصبية ، فينتهي بي الأمر وقد ذهب عني النوم إلى أن أنهض من فراشي وأنا يائس ، وعندئذ لا أكاد أنظر من النافذة حتى أدرك أن الصائحين طيور .

أخرج إلى الحقل وأنشد : الحمد لله رب اليوم الأزرق . نغمٌ طليق تردده القمم ، غض لا نهاية له! القنبرة تُرغي وتزبد بصياحها على هواها في البئر ، والشحرور يغرد فوق شجرة البرتقال الساقطة ، والصفارية تتكلم من النار وهي تنتقل من شجرة عفص إلى أخرى ، والطائر الأخضر يضحك ضحكاً طويلاً متصلاً في قمة شجرة الكافور ، والقنابر تتناقش في شجرة الصنوبر الكبيرة نقاشاً لا ينتهي .

ما أجمل الصباح! الشمس تسكب على الأرض بهجتها الفضية والذهبية ، والفراشات المتعددة الألوان تلعب في كل ناحية بين الأزهار ، وفي الينبوع بالدار ، ظاهره وباطنه ؛ والريف الذي كان يفيض أضواء وأصواتاً وينبوعاً للحياة السليمة الجديدة .

يخيل إلينا أننا في شعاع كبير من الضوء كأنه باطن وردة متّقدة ، وردة كبيرة حارة .

٣٦

الجب*

انظر إليه ، إنه يا بلاتيرو مليء بمياه المطر الأخيرة ، لا صدى فيه ، ولم يعد يتراءى في أعماقه ، كما هو الشأن والماء فيه منخفض ، منظر الطبيعة مع الشمس ؛ تحفة متعددة الألوان تتبدّى خلف قطع الزجاج الصفراء والزرقاء التي يتركب منها السطح .

أنت يا بلاتيرو لم تهبط قط في الجب ، أما أنا فقد هبطت فيه حين أفرغ من الماء منذ سنين ، انظر ، فيه ممر طويل ، تتلوه حجرة صغيرة ؛ ولما دخلْتُ فيه انطفأت الشمعة التي كنت أحملها ورأيتُ في يدي شيئاً يحترق ، وتلاقت في صدري هبّتان من الريح البارد كأنهما سيفان متقاطعان تقاطع عظمتين تحت جمجمة . . . .

والقرية كلها يا بلاتيرو تفيض بالآبار والممرات ، ولكن الجب الأكبر هو الجب الذي في بهو «سالتُود لّلوبو» . في ميدان القلعة القديمة ، وأحسن جب هو الذي في داري ، وفمه -كما ترى- مصنوع من قطعة واحدة من المرمر الأبيض ؛ وممر الكنيسة يمتد إلى كرمة «لوس بُنْتَالس» ومن ثم يتجه إلى الريف بجانب النهر ، وأما الذي يخرج من المستشفى فلم يجرؤ أحد على أن يتتبعه لأنه لا ينتهي قط . . .

وإني لأذكر أنا طفل لياليَ المطر الطويلة وكان يؤرقني فيها الخريرُ

---

* البئر وقد ابقينا على لفظ الجب لوروده في الاصل الاسباني (ل-ع)

المنتحب للماء المستدير وهو يسقط من السطح في الجب ؛ فإذا كان الصباح مضيْئاً كالمجانين لنرى إلى أين انتهى الماء ، حتى إذا بلغ فم الجب كما هو الآن ، فياللروعة إذن وياللصيحاتَ وياللعجب العجاب!

. . .حسن يا بلاتيرو ، والآن هلم لأعطيك شربة من هذا الماء الصافي الغض كالشربة التي شربها «فلْيِجاس» دفعة واحدة ، «فلْيِجاس» المسكين الذي احترق جسده من الكونياك والزبيب . . .

٢٧
الكلب الأجرب

كان يجيء أحياناً إلى الدار قادماً من الحقل وهو هزيل يلهث، فالمسكين يمشي دائماً كأنه هاربٌ قد اعتاد الزجر والرمي بالأحجار، والكلاب أنفسها تهدّده وتتوعده؛ وربما ذهب ذات مرة في شمس الظهيرة أسفل الجبل وهو بطيء حزين.

في مساء ذلك اليوم جاء في أثر «ديانا» وخرجت فإذا بالحارس وقد استبد به الغضب يستل بندقيته ويطلق عليه رصاصة لم يتسع الوقت لأجنبه إياها، فراح البائس والرصاصة في أحشائه يتقلّب وينبعث منه نباح حاد مؤثر، ثم سقط ميتاً تحت شجرة طلح.

وظل بلاتيرو ينظر إلى الكلب ولا يحول بصره عنه وقد رفع رأسه، أما «ديانا» وقد استولى عليها الخوف فراحت تمشي وهي تستخفي من مكان لآخر، وأخذ الحارس، ولعله أحس بالندم، يبسط الحجج وهو لا يدري لمن، ويتسخط دون أن يستطيع، ويريد أن يسكت وخز الضمير، وبدت الشمس وكأن حجاباً يجللها بالسواد، حجاباً كبيراً كالحجاب الصغير الذي ظلل العين السليمة للكلب القتيل.

وهدّت ريح البحر أشجار الكافور، فأخذت تبكي بشدة كلما هبت عليها العاصفة في الصمت الساحق العميق الذي بسطته ساعة الغروب في الريف الذهبي على الكلب الميت.

٢٨
الغدير

انتظر يا بلاتيرو . . . . أو فلْتَخْطُ قليلاً في هذا المرج الرقيق إن شئت، ولكن دعني أرسل بصري في هذا الغدير الجميل الذي لا أراه منذ سنين . . .

انظر كيف تضيء الشمس، وهي تمر على مائه الكثيف، الجمال العميق للخضرة الذهبية، وتتأملها أزهار الزنبق بنضارتها السماوية على الشاطئ وهي مأخوذة . . . . إنها سلالم من المخمل تهبط في قصر متكرر من قصور التيه ؛ وكهوف سحرية فيها جوانب مثالية تصورها أساطير الأحلام للتخيل الطليق الذي تنبعث به نفس رسام باطني ؛ وجناتٌ من جنات فينوس تخلقها الكآبة الدائمة لملكة مجنونة عيونها كبيرة خضراء ؛ وقصور من أطلال كتلك التي رأيتها في ذلك البحر المسائي والشمس الآفلة تجرح الماء الواطئ وهي تزورّ عنه . . . بل هناك ما هو أكثر وأكثر وأكثر . . . ما أقدر أشق الأحلام على أن تسلب، وهي تجذب الجمال الهارب من ردائه اللانهائي، اللوحة المذكورة لساعة من ساعات الربيع بألم في إحدى جنات النسيان التي لا وجود لها قط . . . كل ما هنالك صغير لكنه هائل لأنه يبدو بعيداً ؛ مفتاح لإحساسات لا حصر لها، وكنز لساحر الحمّى المعمّر . . .

كان هذا الغدير قلبي من قبل يا بلاتيرو، هكذا أحسست به وهو مسموم بجمال في وحدته، من فيض الطاقات الرائعة المكبوتة . . . ولما جرحه الحب الإنساني وقد فتح السد الذي فيه جرى الدم الفاسد حتى

ِكه صافياً نقيّاً سهلاً كنهير «اليانوس» يا بلاتيرو في أشد ساعات أبريل فتاحاً ولمعاناً ذهبيّاً وحرارة .

ومع ذلك فربما أتت به يد شاحبة من أيدي الزّمان الماضي إلى غديره قديم الأخضر المنفرد مستجيباً للنداء الصريح «من أجل أن يخفف ألمه» كما مل هيلاس مع السِيدِيس في قصيدة شنْييه* التي قرأتها لك بصوت «مبهم ذبذب» . . .

* اندريه شنييه شاعر فرنسي ولد في القسطنطينية . عرف بمراثيه وقصائده في الحب (١٧٦٤-١٨١١)(ل-ع)

٣٩
قصيدة أبريل

مضى الأطفال مع بلاتيرو إلى مسيل أشجار الحور، وها هم الآن يأتون به وهو يركض بين عبث لا علة له، وضحكات لا حدود لها، وقد حُمِّل بالأزهار الصفراء؛ هنالك في أسفل الوادي أمطرتهم السماء من تلك السحابة الهاربة التي ظللت المرج الأخضر بخيوطها الذهبية والفضية وارتجف لهم قوس قزح كأنه في مِزْهر يبكي، وكؤوس الزهر المبللة لا تزال تقطر ماء على شعر الحمار المبتل.

يا لها من قصيدة غضة فرحة عاطفية!! حتى نهيق بلاتيرو وقد رقّ وهو تحت هذا الحمل الحلو المطير. وهو من حين لآخر يدير رأسه وينتزع الأزهار التي يبلغها بفمه؛ والكؤوس البيضاء والصفراء تعلق قليلاً بالزبد المخضر الذي يخرج من فمه، ثم تنتقل إلى بطنه المشدود بحزام... مَنْ مثلك يا بلاتيرو يستطيع أن يأكل الزهر.... ثم لا يصيبه منه سوء!

يا له من مساء مبهم من أمسيات أبريل... وعينا بلاتيرو اللامعتان اللتان تنبضان بالحيوية تعكسان كل ما في ساعة الشمس والمطر، التي تتراءى في غروبها على ريف «سان خوان» سحابة وردية أخرى تمطر خيوطاً ممزقة.

٣٠

الكناري يطير

ذات يوم طار كناري أخضر من قفصه دون أن أدري كيف ولِم . كان كنارياً عجوزاً وذكرى حزينة لأنثى من جنسه ميتة ؛ لم أهبه الحرية خشية أن يموت من الجوع أو من البرد أو خوفاً من أن تأكله القطط .

وظل يطوف طول اليوم بين أشجار الرمان في البستان وفي شجرة الصنوبر التي بالباب وعند الشجيرات ذات الأزهار البيضاء والحمراء ، وظل الأطفال ، وهم جالسون في الممر طول يومهم أيضاً ، يتعجبون من الطيران القصير للطائر المصفرّ ، أما بلاتيرو وهو يستمتع بحريته ، فقد اتخذ مكانه بجانب أشجار الورد وراح يلعب مع إحدى الفراشات .

وفي المساء جاء الكناري إلى سطح المنزل الكبير ولبث هناك وقتاً طويلاً وهو يخفق في الشمس الفاترة التي جنحت إلى الغروب ، ثم إذا به يظهر في القفص مرة أخرى وهو فرح دون أن يدري أحد كيف ولم .

أي جلبة عندئذ في البستان! فالأطفال يثبون ويصفقون وقد احمرت وجوههم وعلت ضحكاتهم كأن كلا منهم الفجر الطالع ، وتبعتهم «ديانا» وهي مجنونة تنبح على صليل جرسها الضاحك . وأما بلاتيرو فقد غمره ما غمر سواه فراح يتهدج وهو يموج في لحم من فضة كأنه زرزور ، ويتحرك على أرجله في فالس ساذج ، ثم جمع يديه وأخذ يرفس الهواء الصافي الرفيق . . .

٣١
الشيطان

ظهر الحمار فجأة بزقاق «تَرَاسُمورو» يركض ركضاً شديداً منفرداً ، وقد ازدوج سواده في سحابة عالية من الغبار ، وبعد ذلك بقليل ظهر الصبية وهم يلهثون من الإعياء ، ويرفعون سراويلهم الساقطة الممزقة التي تكشف عن بطونهم المغبرة ، وراحوا يرمونه بالقصب والأحجار . . .

كان أسود كبيراً عجوزاً كثبر العظام -كاهن آخر- بحيث يبدو كأن الشعر سينزع منه في كل موضع من جسمه ؛ وقف وكشف عن أسنان صفراء كأنها حبات الفول وأخذ ينهق بشدة نهيقاً عالياً بطاقة لا تناسب شيخوخته التي لا رشاقة فيها . . .

هل هو حمار ضال؟ ألا تعرفه يابلاتيرو؟ تُرى ماذا يريد؟ من أين أتى هارباً في هذا الخبب المتباين العنيف؟

ولما رآه بلاتيرو وخاف منه رفع أولاً أذنيه بحيث التقى طرفاهما ، وأطلقهما بعد ذلك ، فهبطت إحداهما وبقيت الثانية معلقة ، ثم أقبل نحوي يريد أن يستخفي في حفرة بجانب الطريق ويلوذ بالفرار دفعة واحدة ، فمر الحمار الأسود بجواره ورفسه وأسقط البردعة ، وشمه ونهق في حائط الدير ، ومضى يركض أسفل الزقاق . . .

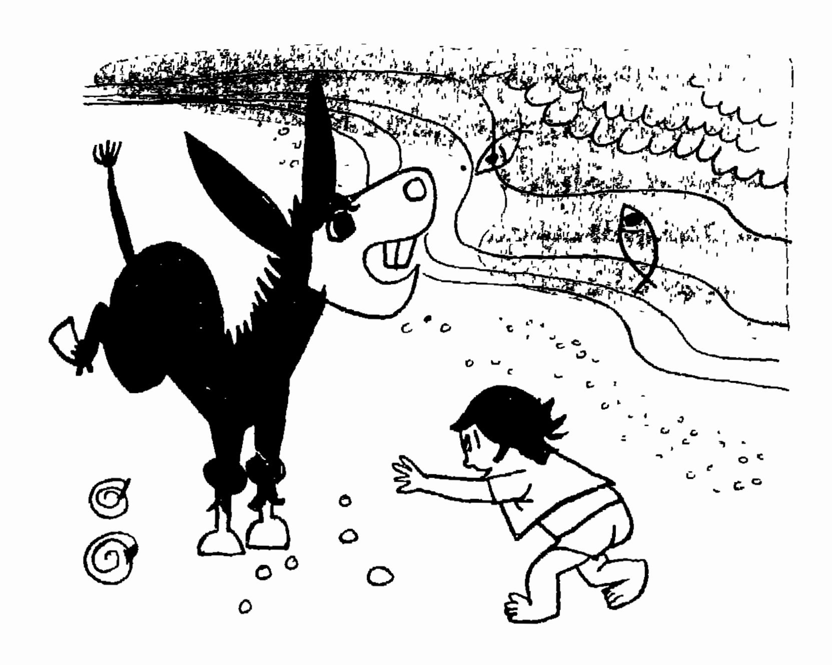
في الحرارة لحظة غريبة من الرعدة -يالنفسي ويا لبلاتيروا- تبدو الأشياء فيها متغيرة ، كأن ظلاً منخفضاً من قماش أسود حيال الشمس يخفي على حين غرة الوحدة التي تُعشي الأبصار في ركن الزقاق الذي

يختنق فيه الهواء الأنفاس حين يهدأ فجأة . . . ثم إذا بالبعيد يعود بنا شيئاً فشيئاً إلى الواقع ، وتُسمع من أعلى أصوات متباينة في حلقة السمك فالبائعون الذين جاؤوا إلى الشاطئ راحوا يحسّنون ما معهم من سمك البربوني والمرجان والتن ؛ كما كان يسمع ناقوس العودة وهو يدعو لصلاة الصباح وصفارة سنّان الآلات الحادة . . .

وبلاتيرو لايزال يرتجف من حين لآخر وهو ينظر إليّ خائفاً في السكون الأخرس الذي شملنا دون أن أدري سبباً لذلك . .

– يا بلاتيرو ، أعتقد أن هذا الحمار ليس حماراً . . .

وبلاتيرو ساكت يرتجف كله مرة أخرى رجفة واحدة وله ضجة غضة ، وينظر إلى الحفرة وكأنه هارب ينفر على استحياء . . .



٣٣
الحرية

كان مما استرعى اهتمامي التائه في أزهار الطريق الضيق طائر مليء بالضوء ما فتئ يفتح جناحيه الأسيرين بألوانهما المتعددة على المرج الأخضر الرطب ، فاقتربنا منه على مهل ، أنا من قدام وبلاتيرو خلفي ، وكان هناك مشرب للطير ظليل وصبية خونة ألقوا شبكة للطيور ، فنهض المسكين يصيح بمنتهى ألمه وينادي إخوانه في السماء دون أن يريد .

وكان الصباح صافياً نقيّاً قد تجاوز اللون الأزرق ؛ وترامى من شجرة الصنوبر المجاورة ترنيم خفيف مثلث مجيد أخذ يقترب ثم يبعد قبل أن يتبدد ، في ريح رقيقة ذهبية راحت تتموج منها كؤوس الزهر ؛ ياله من نغم فقير بريء قريب جدّاً من القلب المريض!

امتطيت بلاتيرو ودفعته برجلي إلى المشي ، وأخذنا نصعد إلى شجرة الصنوبر وهو يركض ركضاً حادّاً ؛ ولما وصلت تحت تاجها الوارف الظليل جعلت أصفق وأغني وأصيح ، وغمر بلاتيرو ما غمرني فأخذ ينهق بشدة مرة ومرة ، وكانت الأصداء تردد الصوت في عمق وجلجلة كأنها في قاع بئر كبير ، ومضت الطيور إلى شجرة صنوبر أخرى وهي تغرد .

وأما بلاتيرو فقد راح يمسّح ، بين اللعنات البعيدة للصبية الأشقياء برأسه الكثيف الشعر ، على قلبي مزجياً لي الشكر حتى آذى صدري .

٣٣

المجريون*

انظر إليهم يا بلاتيرو وقد مدّوا أجسامهم كلها كما تمد الكلاب المكدودة ذيولها في شمس الرصيف .

فالفتاة التي كأنها تمثال من الطين ، وقد انسكب عُرْيها النحاسي بين فوضى أسمالها الصوفية التي تموج بألوان خضراء وحمراء قاتمة راحت تنتزع العشب الجاف الذي تبلغه يداها اللتان في سواد قاع القدر ، وكانت الصغيرة ، وهي شَعْرٌ كلها ، ترسم في الجدار بالفحم صوراً رمزية ساذجة ، والصغير يبول في إنائه كينبوع يتدفق ، وهو يبكي على هواه ، والرجل والقرد يتناوشان ، هذا يحك خصلة الشعر وهو يتمتم بكلمات لا تسمع ، وذاك يحك الأضلاع كأنه يجس قيثاراً .

والرجل من حين لآخر يقعد ثم ينهض ويمضي بعدئذ إلى قلب الشارع ويضرب الطنبور بقوة متراخية وهو ينظر إلى شرفة ، أما الفتاة التي جعل الصبي يضربها فراحت تغني ، وهي تحلف في غير حياء ، بنغم متكرر نشاز ، والقرد الذي كانت سلسلته أثقل من جسمه بحيث فقد صوابه يدور حول نفسه ثم يعمد إلى البحث بين أحجار النهر الصغيرة عن أشدها لينا .

الساعة الثالثة . . . وعربة المحطة تمضي أعلى الشارع الجديد ، والشمس وحدها .

---

* طائفة من الغجر قيل إن أصلهم من الهند ويطلق عليهم في إسبانيا المجريون Los Hungaros لأنهم وجدوا في المجر مثوى لهم (ل–ع) .

إليك يا بلاتيرو المثل الأعلى لأسرة «أمارو» . . .رجل كشجرة البلوط قوةً يحك قرداً ، وامرأة كقدر من الفخار ترتمي على الأرض ، وصغيران : غلام وبنت يقفوان أثر أبناء جنسهما ، وقرد صغير ضعيف كالعالَم ، يجلب الرزق للكل ، ولا يأخذ إلا البراغيث . . .

٣٤

الحبيبة

تصّاعد ريح البحر الصافية في الطريق الأحمر وتنتهي إلى مرج التل ، وتضحك بين الزهيرات الرقيقة البيضاء ، ثم تمد خيوطها في شجيرات الصنوبر دون نقاء وتحرّك بيوت العنكبوت السماوية المتقدة والورود الذهبية فتنفخ فيها كأنها شموع دقيقة . . . والمساء كله ريح بحريّة ، والشمس والريح تكفلان رفاهية غضة للقلب .

بلاتيرو يحملني وهو مسرور متهلل طيب النفس بذلك ، بحيث جاز أن يقال إني لا أثقل عليه ، وأخذنا نصعد إلى التل كما لو تركنا الطريق الضيق أسفلنا ، وتراءت لنا من بعيد شقة من البحر لامعة لا لون لها ، وهي ترتجف بين أشجار الصنوبر الأخيرة في مثل منظر الجزيرة ، وهنالك في المروج الخضر تثب الحمر المشدودة من شجيرة إلى شجيرة .

وتضطرب الوديان بحركة حسية ، ثم إذا ببلاتيرو يرفع أذنيه ويمد أنفه ويطويه حتى يبلغ عينيه ، ويكشف عن حبات الفول الكبيرة في أسنانه الصفراء ، إنه يتنفس طويلاً من الجهات الأربع ما لا أدري من إكسير عميق لا بد أنه ينتقل إلى قلبه . بلى . ها هي المحبوبة في تل آخر ، رقيقة رمادية فوق السماء الزرقاء ، وإذا بنهيق مزدوج طويل مدوٍّ بمزق بضجته سكون الساعة المضيئة ، ثم يهوي بعد ذلك كشلالين توأمين .

كان لا بد لي أن أوازن الغرائز اللطيفة لحماري المسكين بمثلها ، فحبيبة الريف الجميلة تراه ، حين تمشي حزينة مثله ، بعينيها اللتين من كهرباء

سوداء ، وهما مثقلتان بالإحساسات . . . نداء باطل غامض يجوب أزهار الأقاحي في قسوة كأنه غريزة صورت لحماً طليقاً .

وبلاتيرو يركض بشدة وهو يحاول في كل آن أن يعود ، مع لوْم في ركضه الدقيق المكبوح .

– يبدو أنه كذب ، يبدو أنه كذب ، يبدو أنه كذب . . .

٣٥
الدودة التي تمص الدم

انتظر . ما هذا يا بلاتيرو؟ ماذا بك؟ بلاتيرو يقذف الدم من الفم ؛ يسعل ويبطئ في سيره ؛ أدركت كل شيء في لحظة ، ولما مر هذا الصباح بينبوع «بنيتي» شرب منه . وهو وإن كان يشرب دائماً من الماء الصافي وأسنانه مقفولة إلا أنه من غير شك قد علقت بلسانه أو بسقف فمه دودة من الدود الذي يمص الدم . . .

– انتظر يا صاح . أرني . . .

طلبت العون من «رابُوسُو» النجار وهو هابط في طريقه هنالك قادماً من «المِنْدرال» وحاولنا فيما بيننا أن نفتح لبلاتيرو فمه ولكنه كان كالمشدود بِملاط وعلمت مع ألم أن بلاتيرو المسكين أقل ذكاء مما كنت أتصور . . . ثم أخذ «رابوسو» عصا غليظة وقسمها أربعة أجزاء وحاول أن يدخل قطعة في فم بلاتيرو بين فكيه . . ولم يكن الأمر يسيراً ، فرفع بلاتيرو رأسه ونهض على قدميه وهرب واضطرب . . . وأخيراً إذا بالعصا تدخل من جانب في فم بلاتيرو ، وبعدئذ يصعد «رابوسو» نحو الحمار ويشدّ بيديه على طرفي العصا إلى الوراء حتى لا يفلت بلاتيرو .

بلى ، هنالك في فمه الدودة الممتلئة السوداء ؛ وأخذت أنزعها بفرعين من شجرة الكروم اتخذت منهما ما يشبه المقص . . . وكانت مثل قطعة من طين أحمر أو زق من نبيذ أحمر ، وتبدو في الشمس كأنها عرف الديك الرومي استثير بقماش أحمر ، ولكيلا ينتقل منه دم إلى حمار آخر قطعت

العلقة فوق المسيل ، وصبغ دمُ بلاتيرو زبَدَ دوامة قصيرة فيه باللون الأحمر . . .

٣٦
العجائز الثلاث

اصعد يا بلاتيرو في هذا السياج، امض كي نفسح الطريق لهؤلاء العجائز الثلاث اليائسات . . .

لا بد أنهن يأتين من الشاطئ أو من الجبال، انظر، إحداهن عمياء والأخريات تأخذانها من ذراعيها، لعلهن جئن ليقابلن «دون لويس» الطبيب أو يدخلن المستشفى . . . انظر إليهن كيف يمشين على مهل . أي حذر يبدو عليهن، وأي سكينة تغمر اللتين تبصران؛ يخيل إلى من يراهن أنهن يخشين الموت نفسه، ألا ترى كيف يحركن أيديهن من أمامهن كأنهن يحاولن أن يمسكن الهواء ذاته ليدفعن عن أنفسهن أخطاراً يتخيلنها في صورة تدعو إلى العجب، حتى لكأنهن يا بلاتيرو يخفن من الأغصان الغضة عليها أزهارها!

أمسك عليك نفسك يا صاح حتى لا تقع . . . اسمع ما ينطقن به من كلمات حزينة . إنهن من الغجر، انظر إلى ثيابهن المزركشة ذات الخطوط والوشي، ألا ترى أنهن يمضين بقوام ممشوق رغم كبر سنهن، سوداوات ينضح منهن العرق، مغبرّات ضائعات بين التراب وشمس الظهيرة، ولا يزال يرافقهن حسن ضعيف ذابل كأنه ذكرى جافة قاسية . . .

انظر إلى ثلاثتهن يا بلاتيرو . . . بأي ثقة يحملن الشيخوخة إلى الحياة وقد تغلغل فيهن الربيع الذي يصفّر منه الحسك في غمار الحلاوة المهتزة لشمسه الملتهبة!

٣٧
العربة الصغيرة

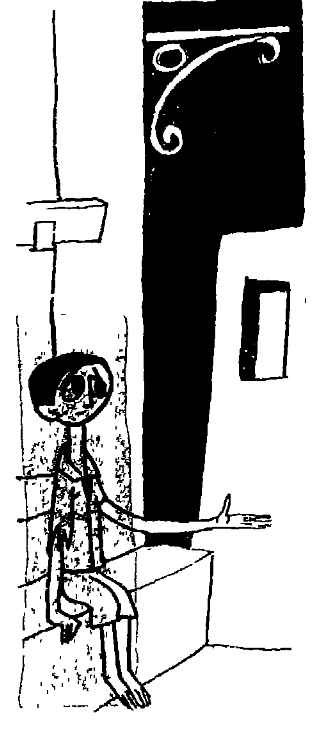
لقينا في الخاضة الكبيرة التي مدتها الأمطار إلى الكرم عربة صغيرة قديمة معطلة ، وضائعة تحت حمل من العشب والبرتقال ، وبجانبها طفلة منهوكة متسخة تبكي فوق العجلة وتريد أن تساعد بصدرها الفضي الحمار الذي هو أصغر ، آه ، وأضعف من بلاتيرو ؛ والحمار يندفع حيال الريح ويحاول دون جدوى أن ينتزع العربة من وحل الطريق على صياح الصبيّة وهي تنتحب ، ولكن جهدها كان ضائعاً ، جهد الأطفال الشجعان وكأنه هبوب نسمات الصيف المكدودة التي تسقط في إعياء بين الأزهار . أخذت أداعب بلاتيرو وأنشطه وفعلت ما استطعت لأربطه بالعربة أمام الحمار المسكين ، وحملته على ذلك برفق ، وشد العربة والحمار من الوحل وجرها إلى أعلى الطريق .

يا لإشراق الصبيّة! كانت كأن شمس المساء التي تكسرت عند أفولها بين سحب الماء في بلّور أصفر يوقدها فجر خلف دموعها المسودة .

وبفرحتها الباكية أعطتني برتقالتين رقيقتين مستديرتين ثقيلتين في الوزن انتخبتهما لي فأخذتهما شاكراً وأعطيت الحمار الضعيف إحداهما كعزاء حلوٍ له ، وأعطيت بلاتيرو الأخرى جائزة ذهبية له .

٣٨

الخبز



قلت لك يا بلاتيرو إن النبيذ روح مغير ، هل هذا صحيح حقاً؟ كلا ، إن روحها هي الخبز ، فمغير شبيهة بخبز القمح وهو أبيض من الداخل ، كلبٍّ كل شيء ؛ ومذهّب من الخارج -يا للشمس السمراء ، كقشرة الشجرة اللينة .

وفي وقت الظهيرة حين تحرق الشمس أكثر ، يتصاعد الدخان من أنحاء القرية وتفوح منه رائحة الصنوبر والخبز الساخن ، ويفتح كل امرئ في القرية فمه ، فتصبح القرية كأنها فم كبير يأكل لقمة كبيرة ، ويدخل الخبز في كل شيء : في الزيت وفي طبق «الجزباتشو»* وفي الجبن والعنب ، ويضاف إلى كل شيء ليضفي عليه لذة ، يضاف إلى الخمر والمرق ولحم الخنزير وإلى الخبز نفسه فيكون الخبز مع الخبز ، وقد يكون وحده كالأمل أو مع أمنية

---

* طبق شائع في الاندلس يتألف من شوربة باردة تصنع من الماء والملح والزيت والخل والقثاء والبصل ويؤكل صيفاً بعد الطعام (ل-ع)

ووهم . . .

والخبازون يأتون على خيولهم وهي تركض ويقفون عند كل باب منفتح قليلاً ، ويصفقون ويصيحون «الخباز» . . . ويسمع الصخب الرقيق للرغفان التي تسقط في الأسفاط ترفعها الأذرع العارية فتصطك مع السميذ ، والأقراص وهي تختلط مع اللفائف . . .

وعندئذ ينادي الأطفال الفقراء عند الأجراس التي على شبابيك الأبهاء أو الأقفال التي على الأبواب ويبكون طويلاً نحو الداخل وهم يصيحون : قليلاً من الخبز! . . .

٣٩

أجلاي*

ما أجملك اليوم يا بلاتيرو : هلم إليّ . . . أنعم بالغُسل الذي حَبَتْك إياه هذا الصباح «لاماكاريا**»! كل ما فيك من بياض وكل ما فيك من سواد يتألق ويزدهر كالنهار وكالليل غِبَّ المطر ، ما أجملك يا بلاتيرو!

ولكن بلاتيرو ، وقد غلبه الحياء قليلاً لأنه يتراءى لنفسه كذلك ، يأتي إليّ على مهل ولايزال مبتلاً بعد حمامه ، وهو من النظافة بحيث يبدو كطفلة عارية ، وقد أضاء وجهه كأنه فجر ، ولمعت عيناه الكبيرتان كأنما أعارتهما أصغر آلهات الجمال الحماس والبريق .

أقول له ذلك ، وآخذ برأسه في حماس أخوي أفاجئه به ، ثم أهزه وأشد عليه بحنان وألاعبه . . . أما هو فيخفض بصره ويتقيني في رقّة بأذنيه دون أن يذهب ، أو ينطلق بأن يجري قليلاً ثم يعود ويقف فجأة كأنه يلعب .

وأعيد عليه القول –ما أجملك يا بلاتيرو!

وبلاتيرو ، وكأنه طفل فقير يزهو بثوبه الجديد ، يعدو خائفاً ، ويتحدث معي وينظر إليّ وهو يهرب ، وأذناه تضطربان بالبهجة ، ويبقى على باب الزريبة ليأكل بعض كؤوس الزهر الملونة .

وأجلاي واهبة الرحمة والجمال تعتمد على شجرة الكمثرى التي

(*) أصغر آلهات الجمال الثلاث المسماة Gracias . وفي الأسطورة أنها تزوجت إيناستوس . (ل–ع) .

(**) خادم كانت في بيت الشاعر (ل–ع)

تزدان بكؤوس ثلاث ، كأس الورق وكأس ثمرة الكمثرى . وكأس القنْبرة ، وتنظر إلى المشهد وهي تضحك ، لا تكاد تدركها الأبصار في شمس الصباح الشفافة .

٥

صنوبرة كورونا

حيثما وقفت يا بلاتيرو خيّل إليَّ أني أقف تحت صنوبرة كورونا ؛ وحيثما ذهبتُ سواء إلى المدينة أو إلى الحُبّ أو إلى المجد خيل إليّ أني أذهب إلى عنفوانها الأخضر المسكوب تحت السماء الكبيرة الزرقاء بسحبها البيضاء ؛ إنها منار هادٍ وواضح في البحار الشاقة لأحلامي كما هي منار للملاحين من أهل مُغير في عواصف الطريق ، وقمة ثابتة لأيامي العسيرة بأعلى مكان في طريقها الأحمر الوعر الذي يسلكه الشحاذون وهم في طريق «سانلُوكَر» .

ما أشد قوتي التي أحس بها كلما استقرّ بي المقام تحت ذكراها! إنها وحدها التي لم تكف ، وأنا أنمو ، عن الكِبر ؛ وهي وحدها التي عظُمَت مع الزمن ؛ ولما قطعوا منها الغصن الذي حطَّمتْه العاصفة خيل إلي أنهم بتروا عضواً من جسمي ، وأحياناً ينتابني ألم على حين غرة فيخيل إليّ أنه يؤلم صنوبرة كورونا .

لفظُ «عظيم» يصدق عليها كما يصدق على البحر وعلى السماء وعلى قلبي ، قد تفيأت ظلها أجناسٌ طوال القرون وهي تنظر إلى السحب كأنها فوق الماء وتحت السماء وفي حنين قلبي ؛ وفي انطلاق أفكاري حين تتراصّ الصورُ التي لا سلطان لأحد عليها حيث تشاء ، أو في تلك اللحظات التي تبدو فيها الأشياء كأنها في مرأى ثان وعلى جانبها المتميِّز تتراءى لي شجرة الصنوبر ، وقد استحالت إلى ما لا أدريه من إطار للخلود ، أكثر صخباً

وضخامة في الشك ، وهي تدعوني إلى أن أستريح في سكينتها ، كأنها
النهاية الحقة الأبدية لرحلتي في الحياة .

٤١
داربون

داربون ، طبيب بلاتيرو ، كبير كالعجل الطيب ، أحمر كالبطيخة ، يزن مائة وعشرين كيلو ؛ وسنّه فيما يقول ، ستون سنة .

تنقصُه حين يتكلم بعض الأنغام كما تنقص أجهزة البيانو العتيقة ، وربما انطلق منه هواء مكان الألفاظ ، وهذا الصفير يقترن بانحناء الرأس وتحرك اليدين وتردّد الخرّف وصخَب الحنجرة والبصق في المنديل مما ليس معه زيادة لمستزيد . نغم محبوب يتوقف قبل العشاء .

لم يبقَ له سن أو ضرس ، ولا يأكل إلا لبّ الخبز الذي يرقّقه أولاً في يده فيصْنع منه كرة ويقذفها في فمه الأحمر ، وهناك يديرها ساعة من الزمن ، ثم كرة أخرى وكرة ثالثة ، ويظل يمضغ اللثتين ، وحينئذ تصل ذقنه إلى أنفه المحدب .

أقول إنه كبير كالعجل الطيب ، فهو يغطي المنزل إذا وقف عند باب البنك ؛ لكنه يرقّ كالطفل مع بلاتيرو ؛ وحين يرى زهرة أو طائراً لا يلبث أن يضحك ملء شدقيه ضحكة كبيرة متصلة لا يستطيع أن يضبط سرعتها واستمرارها وتنتهي دائماً بالبكاء ، ثم يغلبه الجد فينظر طويلاً من جانب المقبرة القديمة :

– بنيّتي ، بنيتي المسكينة . . . .

٤٢
الطفل والماء

في الجفاف الجدب المحترق بالشمس في الفناء المُغبرّ الكبير الذي مهما أبطأ المرء في السير فيه امتلأ حتى عينيه بالغبار الأبيض الناعم ، كان الطفل مع النبع في جماعة صريحة باسمة كل واحد منها مع روحه ، ومع أنه لا توجد شجرة واحدة فإن القلب إذ يصل هناك يمتلىء بعدد منها حتى إن العيون لتردّد في السماء ذات الزرقة القاتمة كتابةً بحروف كبيرة من نور : واحة .

في الصباح حرارة ما بعد الظهيرة ، والحر يقطع الزيتون في فناء «سان فرنسيسكو» والشمس تحرق رأس الطفل ، لكنه وهو مقبل على الماء لا يحس بها ؛ لقد ارتمى على الأرض وجعل يده تحت الماء الدافق الحي ، فوضع الماء في يده قصراً مهتزاً من النضارة والرقة ، جعلت عيناه تتأملانه وهما ذاهلتان ، يتكلم وحده ويخفي أنفه ويحك بيده الأخرى بين أسماله هنا وهناك ، والقصر وهو متماثل دائماً ويتجدد في كل لحظة يترقرق أحياناً ، وعندئذ يقبل الطفل على نفسه ويشد على جسمه ويستجمع أطرافه حتى لا يؤدي خفقان الدم الذي يغير الصورة الحساسة في الكاليد سكوبيكو* بزجاجه المتحرك وحده إلى أن يسلب الماء صورته الأولى الرائعة . لا أدري يا

(*) آلة يتمكن بها الناظر من مشاهدة أشكال شتى على نظام بديع (ل-ع) .

بلاتيرو إن كنت تفهم ما أقول أو لا تفهمه ولكن هذا الطفل في يده روحي .

٤٣

الصداقة

نحن نحسن التفاهم ، أنا أدعه يذهب إلى حيث يشاء وهو يحملني إلى حيث أريد .

يعلم بلاتيرو أني عند وصولي إلى صنوبرة كورونا يروقني أن أقترب من جذعها وأداعبه ، وأنظر إلى السماء من خلال تاجها العظيم الواضح ؛ يعلم أنه تطيبُ لي الخضرة التي تمتد بين العشب إلى الينبوع العتيق ، وأن مما يعتبر عيداً لي أن أرى النهر من تل أشجار الصنوبر ، إذ يثير في النفس بغابته العالية ذكرى أماكن معهودة ؛ ولما كنت أنام مطمئناً عليه فإن يقظتي تتفتح دائماً على إحدى هذه المشاهد الحبيبة .



إني أعامل بلاتيرو كما لو كان طفلاً ، فإذا كان الطريق وعراً يثقل عليه قليلاً نزلت لأخفف عنه ، ثم أقبله وأخادعه وأناوشه . . .

عندئذ يعلم أني أحبه ولا يحمل لي حقداً ، فهو شبيهي ومختلف عن الآخرين بحيث انتهى إلى أن تراوده نفس أحلامي .

وقد سلم لي بلاتيرو نفسه كأنه فتاة غلبها الهوى ، فهو لا يحتج على شيء ؛ وأعلم أني سعادته ، ولقد يبلغ به الأمر أنه يهرب من الحمير ومن الناس . . .

٤٤

التي تنيم الطفل بغنائها

بنت بائع الفحم وهي لطيفة وقذرة كأنها عملة ، تلمع عيناها السوداوان ، وشفتاها اللتان تشد عليهما بين الدخان تقذفان دماً ؛ تجلس عند باب الكوخ على حجر وهي تنيم أخاها الصغير .

تهتز ساعة مايو وهي متقدة صافية كأنها شمس من الداخل ؛ وفي السكينة اللامعة يُسمع غليان القدر يطبخ في الحقل ، وصهيلُ الخيل وهي في المرعى ، وفرح الريح التي تهب من البحر في غمرة أشجار الكافور .

وراحت الفحّامة ، وهي جالسة حلوة ، تغني بقولها :

سينام طفلي

في رحمة العذراء الراعية . . .

ثم سكتت ، والريح في كؤوس الزهر :

ولكي يرقد طفلي

ترقد التي تنيمه . . .*

الريح . . . . بلاتيرو الذي يمشي هوناً بين أشجار الصنوبر المحترقة يصل شيئاً فشيئاً . . . . ثم يرتمي بعدئذ على الأرض المعشوشبة ، وفي أنغام المقطوعة الطويلة للأم ينام كأنه طفل .

---

* ورد هذا الغناء باللهجة الأندلسية المحلية . (ل-ع)

٤٥

شجرة الفناء

هذه الشجرة يا بلاتيرو ، شجرة الطلح التي زرعتها بنفسي ، وهي لهب أخضر جعل ينمو ربيعاً بعد ربيع ، والآن تظلّلنا بورقها الوارف وقد مرت عليها الشمس الآفلة ، كانت أثناء مقامي في هذا المنزل المغلق الآن خيرَ عماد لشعري ، فكل غصن فيها مزدان بالزمرد في أبريل أو بالذهب في أكتوبر ، وحسبي منه أن أنظر إليه لينعش جبهتي كأنه أنقى يد لآلهة الشعر . ما كان أرقها وأرشقها وأجملها!

وهي الآن يا بلاتيرو سيدة الفناء كله ، يا للوشي الذي وضَعْته! لا أدري إن كانت تذكرني ؛ أما هي فتبدو لي شيئاً آخر ، وطوال هذا الوقت الذي نسيتها فيه كأنه لا وجود لها جعل الربيع يصنعها عاماً بعد عام على هواه خارج مستوى عاطفتي .

إنها اليوم لا تقول لي شيئاً مع أنها شجرة ، وشجرة أنبتّها بنفسي ، والشجرة التي نداللها لأول مرة تملأ القلبَ يا بلاتيرو بالمعاني ، الشجرة التي طالما أحببناها وطالما عرفناها لا تقول لنا شيئاً ما يا بلاتيرو ؛ إنها حزينة ؛ لكن لا جدوى من أن تقول شيئاً آخر .

كلا ، لا أستطيع أن أنظر في خليط شجرة الطلح والغروب إلى مِزهَري المعلّق ، فلا الغصن الرشيق يوحي إلي بالشعر ، ولا الضوء الداخلي لتاجها يهديني إلى الفكرة ؛ وهاهنا حيث جئت مراراً من الحياة وأنا أتوهم الوحدة الموسيقية وهي غضة عاطرة ، أراني مريضاً أحس بالبرد ، وأريد أن أرحل كما كنت أفعل من قبل ، عن المنتدى والحانوت وعن المسرح يا بلاتيرو .

٤٦

المسلولة

كانت على مقعد حَزين ، وجهها أبيض لا بريق فيه ، كأنها زهرة ناردين مقطوفة ، في وسط الغرفة الباردة البيضاء ؛ أوصاها الطبيب بأن تخرج إلى الريف ليهبها شمس مايو البارد ، لكن المسكينة لم تستطع .

قالت لي :

كلما أصل إلى القنطرة يا سيدي عند ذلك الجانب أختنق .

وكان صوتها الضعيف الرقيق المتقطع يتساقط مكدوداً كما تتساقط أحياناً نسمة الصيف .

أعطيتها لبلاتيرو كي يطوف بها قليلاً ، وامتطته ؛ فيا للضحكة التي تنبعث من وجهها الحاد ، وجه الميّتة ، الوجه الذي كله عيون سوداء وأسنان بيضاء!

وأطلت النساء من الأبواب ينظرن إلينا ونحن نمر ، وكان بلاتيرو يمشي على مهل كأنه يعلم أنه يحمل فوق ظهره زنبقة هشة من بلّور رقيق ، وكانت الطفلة في ثوبها الأبيض ثوب «عذراء مونتمايور» الذي يموج بلون أحمر قاتم وقد غيَّرتها الحمى والأمل ، كأنها مَلَكٌ يجتاز القرية في طريقه إلى سماء الجنوب .

٤٧

قطر الندى*

قلت لبلاتيرو هيا بنا ننتظر موكب العربات ، فهي تحمل جلبة غابة «دُنْيانا» البعيدة ، وسرَّ صنوبرة «لاس أنيماس» ونضارةَ «لاسْ مادْرِيس» و«لُوس دُوْس فرِينُوس» ، وعطرَ «روشينا» . . . .

حملَني وهو الجميل المترف لأتغزل بالفتيات بشارع «لافوينتي» الذي تموت في جنباته الجيرية السفلى شمس المساء المهتزة وهي في صورة شريط وردي مبهم ، ثم قصدنا بعدئذ إلى سياج «لُوس هورنوس» حيث يتراءى طريق «لُوس إلْيَانُوسْ» كله .

أقبلَت العربات من أعلى الطريق ، وكان قطر الندى الرقيق يتساقط على الكروم الخضراء كأنه سحابة رحيمة عابرة ، غير أن الناس لم يكونوا يجشمون أنفسهم عناء رفع أبصارهم إلى الماء .

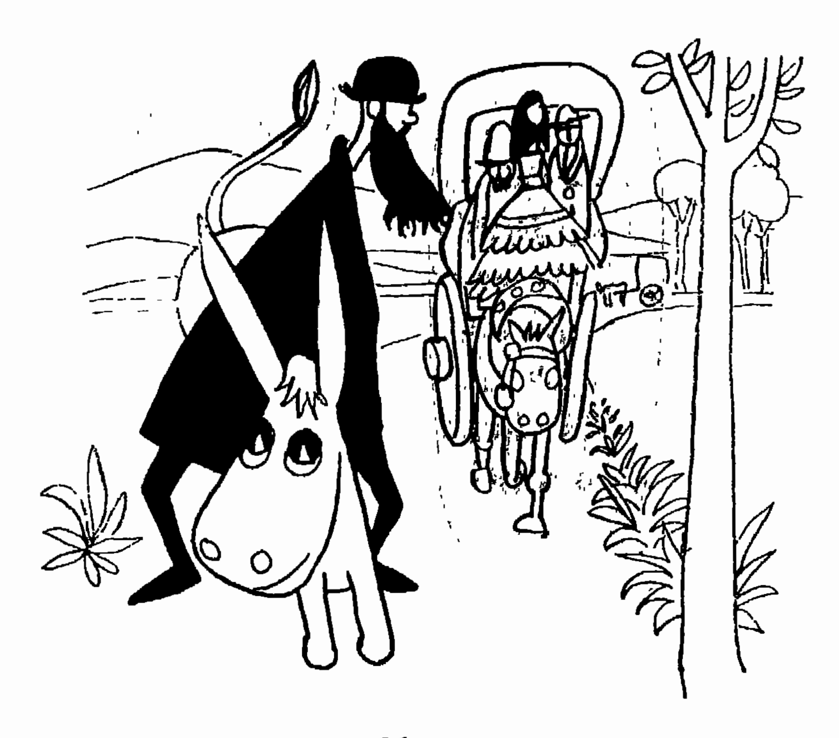
مضى أولاً أزواج من الفتيان وصواحبتهم الفتيات ، أولئك فرحون ، وهؤلاء باسلات مضَوْا على الحمير والبغال والخيل المزدانة بحلية كحلية الأفراس العربية وشعورهن مضفورة ، وكانت الضجة الفتية الحية تروح وتغدو ولا تزال تتعالى حتى تستحيل إلى جنون لا معنى له ، ثم تلا ذلك عربة السكارى صاخبة مضطربة ، وبعدها عربات كالأسرَّة مزدانة بألوان بيضاء ، عليها فتيات سمراوات ناهضات مشرقات وقد جلسن تحت المظلة يضربن الدفوف ويصحن بأغان إشبيليّة . وتتكاثر الخيل وتتكاثر الحمير . . . ويهتف رئيس الموكب «تحيا عذراء قطر الندى! تحيا يا يا!» وهو أصلع نحيف أحمر ،

(*) موكب Roeio (ل-ع)

قبعته العريضة على ظهره ، وعصاه الذهبية في ركابه . وأخيراً أقبل «المطهّر من الإثم» بلونه الأرجواني والفضي على عربته البيضاء التي تتأرجح في اهتزازها المتباين وكلها زهرٌ ، كأنها محملة بجنة شاحبة ، يجرها على مهل عجلان كبيران طيبان ، يخيل إلى من يراهما أنهما مطرانان ، تزدان جبهتاهما بشتى الألوان والمرايا التي يتطاير منها شرر ينبعث من انعكاس الشمس المبتلة .

وكانت تسمع الموسيقى مخنوقةً بين أصوات الأجراس والصواريخ السوداء ووقع حوافر الخيل وهي تدق الأحجار بحديدها . . .

عندئذ ضم بلاتيرو يديه ثم ركع كما تركع المرأة . . . وتلك براعة منه . . . وكان في حركته غضاً متواضعاً رضيّاً .



٤٨
رونسار*

لما تحرر بلاتيرو من مقوده وأخذ يرعى بين أزهار اللؤلؤ في المرج استلقيتُ تحت شجرة صنوبر وتناولت من الخُرْج العربي كتاباً صغيراً ثم فتحته بعلامة فيه وأخذت أقرأ بصوت مرتفع :

كما نرى على الغصن في شهر مايو
الوردة في صباها الجميل وفي زهرتها الأولى
تثير غيرة السماء من . . . .

وفي العلياء عند الغصون الأخيرة يثب ويصفّر طائر خفيف جعلته الشمس من ذهب كسائر القمة الخضراء التي تتنفس ، ويُسمع بين طيرانه وصفيره انشقاق الحب الذي يأكله هذا الطائر .

. . . .من لونها الحي . . . .

وإذا بشيء هائل فاتر يتقدم على كتفي كأنه صدر حي للسفينة ؛ إنه بلاتيرو الذي استوحى من غير شك مزهر «أرفيو**» جاء ليقرأ معي .

ونقرأ :

. . . لونها الحي
حين أخذ فجر دموعها في مطلع النهار . . .

غير أن الطائر الذي يتمثل غذاءه بسرعة راح يستر الكلمة بنفحة

(*) بيير دي رونسار شاعر فرنسي في شعره عطر نادر واتساق كامل وتباين في القوافي (١٥١٤-١٥٨٥) - (ل-ع)

(**) أعظم موسيقي عرفه العالم القديم قيل إنه كان إذا عزف بادرت الوحوش إليه وجثت تحت قدميه (ل-ع) .

زائفة .

ورونسار المنسي لحظة في مقطوعته الشعرية حيث يقول «إني وأنا أفكر في شَرَهي أجمع . . .» لا بد أن يكون قد ضحك في الجحيم .

٤٩

صاحب صندوق الدنيا

لم يلبث صمت الشارع أن قطعه دقُّ الطبل في خشونته ، وأعقبه صوت أجش يهتز بنداء متقطع طويل ، ثم أصوات العدو أسفل الشارع . . . والصبية يصيحون : صاحب صندوق الدنيا! صندوق الدنيا! صندوق الدنيا! .

وفي الزقاق منصة عليها صندوق صغير أخضر تعلوه أربع رايات وردية وبه منظار متجه إلى الشمس ، والعجوز يدق ويدق الطبل ، ويحيط بالصندوق جماعة من الصبية لا مال معهم وقفوا ساكتين ، أيديهم في جيوبهم أو على ظهورهم ، وما هي إلا لحظات حتى يجيء صبي آخر يعدو ونقوده في كفه فيتقدم ويضع عينيه على المنظار . . . .

– الآن ترون . . . القائد بِرِم . . . على حصانه الأبيض! . كذلك يقول العجوز الغريب : وهو بَرِمٌ ضيق الصدر ويدق الطبل .

– ميناء . . . . برشلونة . . . .! –ثم يدق الطبل .

ويجيء أطفال آخرون ونقودهم معهم ، ثم لا يلبثون أن يتقدموا إلى العجوز وينظروا إليه ونفوسهم مهيأة لشراء تخيُّلهم ، ويقول العجوز :

– والآن ترون . . . حصن هابانا! –ثم يدق الطبل . . .

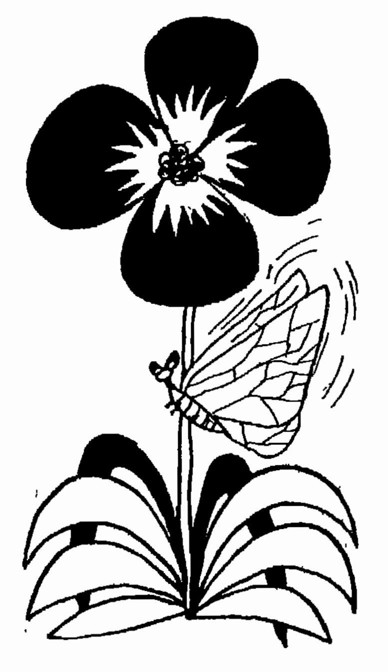
وبلاتيرو الذي ذهب مع الطفلة والكلب المقابل ليرى صندوق الدنيا يدس رأسه بين رؤوس الأطفال على سبيل العبث ، فيقول له العجوز بدعابة يرتجلها لساعته :

- هات نقودك!

- والأطفال الذين لا مال معهم يضحكون جميعاً من غير رغبة ، وينظرون إلى العجوز نظرة فيها توسل يترضونه بها . . .

٥٠

زهرة الطريق



ما أنقى وأجمل وردة الطريق هذه يا بلاتيرو! تمر بجوارها الدواب – الثيران والمعزْ والأفلاء والناس– وهي في رقتها وضعفها، لاتزال ناهضة رحيمة رشيقة في سياجها الحزين دون أن تشوبها ريبة ما.

وفي كل يوم نبدأ الطريق ونختصره وتراها في مكانها الأخضر، إما بجانبها طائر ينهض – لم؟– ليقترب منا؛ وإما هي مليئة كالكأس الصغيرة، بالماء الصافي لسحابة صيف، راضية بأن تسرقها نحلة أو تزدان بها فراشة.

هذه الزهرة يا بلاتيرو ستعيش أياماً قليلة وإن كانت ذكراها ستظل إلى الأبد؛ ستكون حياتها كيوم من ربيعك وكربيع في حياتي، . . . تُرى ماذا أعطي يا بلاتيرو للخريف مقابل هذه الزهرة الإلهية حتى تكون في كل يوم المثل اليسير اللانهائي لنا؟

٥١

لولا

لا أدري إن كنت يا بلاتيرو تعرف كيف تنظر إلى الصورة ، لقد أطلعتُ عليها نفراً من أهل الريف ولم يروا في الصور شيئاً ، وبعد فهذا «لورد» يا بلاتيرو الكليب السلوقي الذي حدثتك عنه مراراً ؛ انظر إليه إنه –ألا تراه؟– في أحد مساند بهو المرمر يأخذ شمس الصيف بين أصص الزهر التي فيها إبر الراهب .

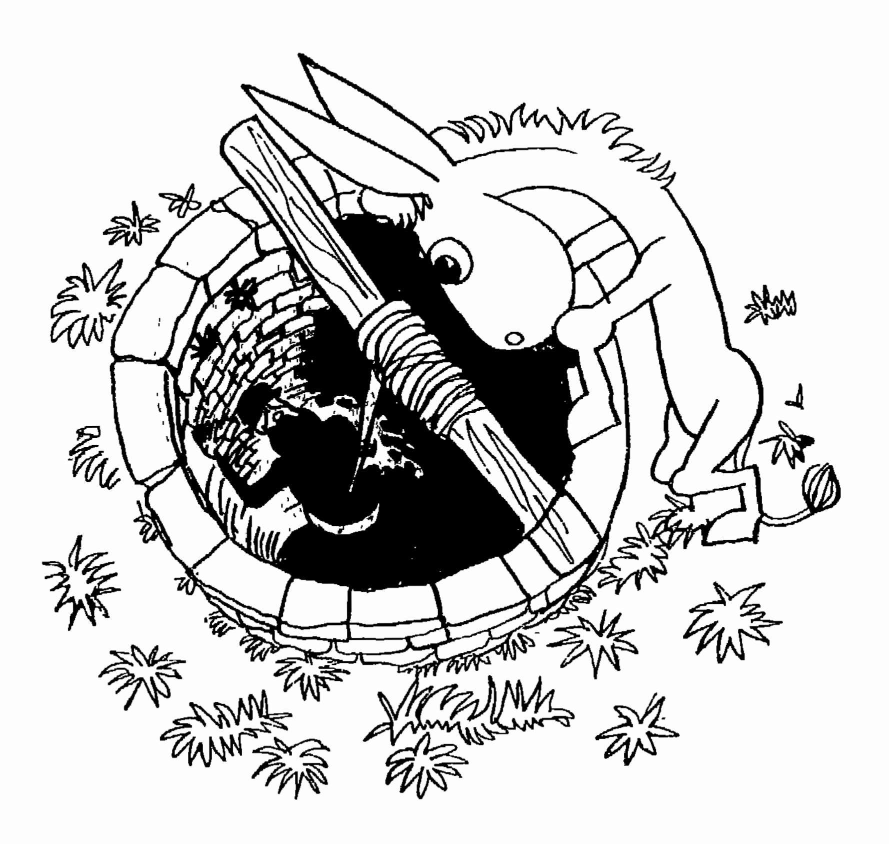
يا له من مسكين! جاء من إشبيلية وأنا أرسم هناك ، كان أبيض لا لون له تقريباً ، كثير الضوء ، ممتلئاً كأنه فخذ سيدة ، دائرياً ودفّاقاً كالماء في فم بئر ؛ هنا وهناك فراشات مستقرة وبقع سوداء ، وعيناه شيئان هائلان قصيرا المدى تفيضان بمشاعر النبل ، وكان فيه عرق من جنون ، فأحياناً يعمد إلى الدوران في انحناء بين سوسنات بهو المرمر المزدان كله بها بين حمراء وزرقاء وصفراء ، من بلّور مرت عليه شمس السقف الزجاجي ، كذكور الحمام التي يرسمها دون «كاميلو» . . . . وأحياناً أخرى يصاعد إلى الأسطح ويثير ضجة لها صفير في أعشاش القنابر . . . «ولاماكاريا» تغسله كل صباح فيكون له أبداً إشعاع كشرفات السطح في السماء الزرقاء يا بلاتيرو .

ولما مات أبي بات ليلته يحرسه بجانب التابوت ، ومرضت أمي ذات مرة فارتمى عند أقدام سريرها وقضى هنالك شهراً لا يذوق طعاماً أو شراباً . . . وجاؤوا يوماً يقولون في داري إن كلباً أجرب عضه . . . فكان لا بد من نقله إلى معصرة الخمر في «كاستيلّلو» وربطه هناك إلى شجرة برتقال بعيداً عن الناس .

نظْرتُه التي خلفها وراءه في الشارع حين حملوه لاتزال تجرح قلبي كما فعَلَتْ به من قبل يا بلاتيرو ، كأنها ضوء نجمة ميتة ، وحية دائماً ، قد تجاوزت عدمَها بالكثافة المشبوبة لشعورها الأليم . . . وكلَّما وخز القلب ألمٌ «مادي» تتمثل لي نظرة «لورد» التي تركَتْ فيه إلى الأبد مثلما يترك الأثر الأليم ، وهي طويلة كطريق الحياة إلى الخلود أعني من المسيل إلى صنوبرة «كورونا» .

٥٢
البئر

البئر! . . . يا بلاتيرو يا لها من كلمة عميقة ، ذات خضرة قاتمة ، رقراقة صائتة! كأن الكلمة هي التي تحفر ، إذ تستدير ، الأرض المظلمة حتى تصل إلى الماء البارد .



انظرا شجرة التبن تزيّن فم البئر وتعوقه ، وبداخله في متناول اليد تفتحت بين الآجر المغطى بالطحلب زهرة زرقاء عطرها نفاذ ، وفي أسفل ذلك عش لقنبرة ، يتلوه بعد رواقٍ ذي ظل ساكن قصرٌ من الزمرد وبحيرةٌ إذا رمى فيها رام بحجر غضبت وزمجرت ، ثم السماء وراء ذلك كله .

(يدخل الليلُ ويشتعل القمرُ هناك في الأعماق ، وقد ازدان بنجوم دائرة ، سكون! وفي الطرقات ذهبت الحياة بعيداً ، وفي البئر تهرب الروح إلى الأعماق ، يُرى من خلاله ما يشبه الجانب الآخر من الشفق ، وكأنما سيخرج من فمه عملاقُ الليل صاحبُ أسرار العالم جميعاً . يا لك من قصر التيه الساكن المسحور ، ويالك من منتزه ظليل عاطر ، وقاعة مغناطيسية مهجورة) .

يا بلاتيرو . إذا أنا نزلت يوماً ما في هذا البئر فلن يكون في ذلك حتفي ، وصدقني فيما أقول ، بل لآخذ النجوم على عجل .

وبلاتيرو ينهق وهو عطشان متطلّع ، ثم تخرج من البئر قنبرة مفزعة مضطربة صامتة .

٥٣
المشمش

في زقاق «سال» الذي يتلوى في ضيقه ، بلونه البنفسجي من الجير مع الشمس والسماء الزرقاء إلى البرج وهو غطاؤه الأخير المسود العاري في تلك الناحية الجنوبية من آثار ضربات الريح التي تهب من البحر ، يجيء على مهل طفل وحمار ، والطفل وهو رجيل قصير ، أصغر من قبعته العريضة الساقطة ،



يعكف على قلبه الخيالي الجبلي ، فيعطيه أناشيد وأناشيد خفيضة :

بتعب شديد

طلبته . . . .

أما الحمار ، وهو طليق ، فيعض العشب القليل المتسخ في الزقاق وقد أرهقه حمل المشمش ؛ والطفل من حين لآخر ، وكأنه يتجه إلى الشارع الحقيقي ، يتوقف فجأة ويفتح رجليه العاريتين الأرضيتين ويضمهما في الأرض كأنه يستمد منها قوة ، ثم يجوّف صوته بيده ويغني غناء حاداً بصوت تتمثل طفولته فيه وهو يمد كسرة الميم :

الميشمش! . . . . .

ويعود بعد ذلك إلى غنائه الغجري العريض ، ولا يعنيه البيع في شيء على حد ما يقول الأب ديات :

«أنا لا ألومك . . .

لن ألومك . . . . .»

ويضرب الأحجار بالعصا دون أن يدري . . .

تفوح رائحة الخبز الحار والصنوبر المحترق ، وتهب نسمة بطيئة تحرك الشارع ، وفجأة يدق الناقوس الكبير ليتوّج الساعة الثالثة بما يزدان به من جرس صغير ، وتتلو ذلك أصوات الأجراس معلنة العيد فتخنق بسيلها ضجة البوق وجلاجل عربة المحطة التي تقطع أثناء صعودها في القرية الصمت الذي نام ؛ والهواء على الأسطح يأتي ببحر خيالي في بلّوريته العاطرة المتحركة البراقة ، بحر لا حد له أيضاً ، برم بأمواجه المتشابهة في لمعانها المتفرد .

والطفل يعود إلى مكانه الأول ، إلى يقظته وإلى صياحه :

مشمش! . . .

وبلاتيرو لا يريد أن يمشي ، فينظر وينظر إلى الطفل ويشم حماره ويلطمه والحماران يتفاهمان على ما لا أدريه من حركة توأمية للرأسين تذكر في الحال بحركة الدببة البيضاء . . .

حسن يا بلاتيرو ، اسأل الطفلَ أن يعطيني حماره ، وأنت تذهب معه وتكون بائع مشمش . . . ، هيا!

٥٤

الرفسة

مضينا في طريق «مُنْتِمايُور» إلى حيث توسم الأبقار والثيران الصغيرة ؛ والبهو المرصوف بالحجر ، وهوظليل تحت سماء المساء الهائلة المتقدة الزرقاء ، يهتز مصوتاً من صهيل الخيل الفرحة الدافقة ، وضحكِ النساء الفضي ، ونباح الكلاب القلق ، وبلاتيرو يجزع وهو قابع في أحد الأركان .

قلت له . . . ولكنك يا صاح لا تستطيع أن تأتي معنا ، إذ أنت صغير جداً . . .

فجن جنونه حتى طلبت إلى «الأبله*» أن يمتطيه ويأتي به معنا .

ما أجمل الركض الفرح في الريف! كانت الغدران المبتسمة معصوبة بالذهب ، والشمس في مراياها المتكسرة تضاعف الطواحين المقفولة ، وبين الركض الدائري الشديد للخيل أخذ بلاتيرو يرفع خببَه الحاد السريع الذي اضطر إلى أن يضاعفه باستمرار كقطار «ريوتنتو» في حركته الدقيقة على القضبان حتى لا يبقى وحده مع «الأبله» في الطريق . وبينا نحن كذلك إذا بشيء يدوي كأنه طلقة مسدس . لقد صدم بلاتيرو بفمه وركَ فلو رقيق بطيء ، والفلو رد عليه برفسة سريعة ؛ لم يعبأ أحد بهذا ، ولكني رأيت بلاتيرو والدم يسيل من يده ، فألقيت بنفسي على الأرض وأخذت شوكة وسبيبة وربطت العِرْق المقطوع ، وسألت «الأبله» بعد ذلك أن يحمله إلى

(*) لقب لإنسان . (ل-ع) .

المنزل .

ذهبا بطيئين حزينين ومرا بالمسيل الجاف الذي يهبط من القرية وقد حولا رأسيهما إلى الفرار اللامع لحركتنا . . . ولما عاد الموكب مضيت لأرى بلاتيرو فلقيته حزيناً متألماً .

قلت له بزفرة : ألا ترى أنك لا تستطيع أن تذهب مع الرجال إلى أي مكان؟

٥٥

التحمير

أقرأ في المعجم : التحمير ، يوصف به الرجل على سبيل السخرية لشبهه بالحمار .

يا لك من حمارمسكين وأنت من أنت في طيبتك ونبلك وحدّتك . . على سبيل السخرية . . لم؟ ألا تستحق وصفاً جاداً ، أنت الذي صفته الحقة كونك قصة من قصص الربيع؟ إنه لأجدر بالإنسان الطيب أن يقال له حمار! وأجدر بالحمار الخبيث أن يقال له إنسان! . . على سبيل السخرية . . . السخرية منك ، وأنت المثقف صديق الكهل والطفل ، والمسيل والفراشة ، والشمس والكلب ، والزهرة والقمر ؛ صبور متأمل ، حزين رضي النفس ، ماركو أوليو* المروج . . . وبلاتيرو الذي لا شك أنه يفهمني يحدق فيَّ طويلاً بعينيه المضيئتين وبشدة فيها لين ، عينيه اللتين تلمع فيهما الشمس وهي صغيرة وهّاجة في قبة السماء الموجزة المحدبة بخضرتها التي يغشاها سواد . آه! لو عرف رأسُه الصغير الشعري أني أنصفه وأني خير من هؤلاء الذين يكتبون المعاجم وأني أكاد أكون طيباً مثله!

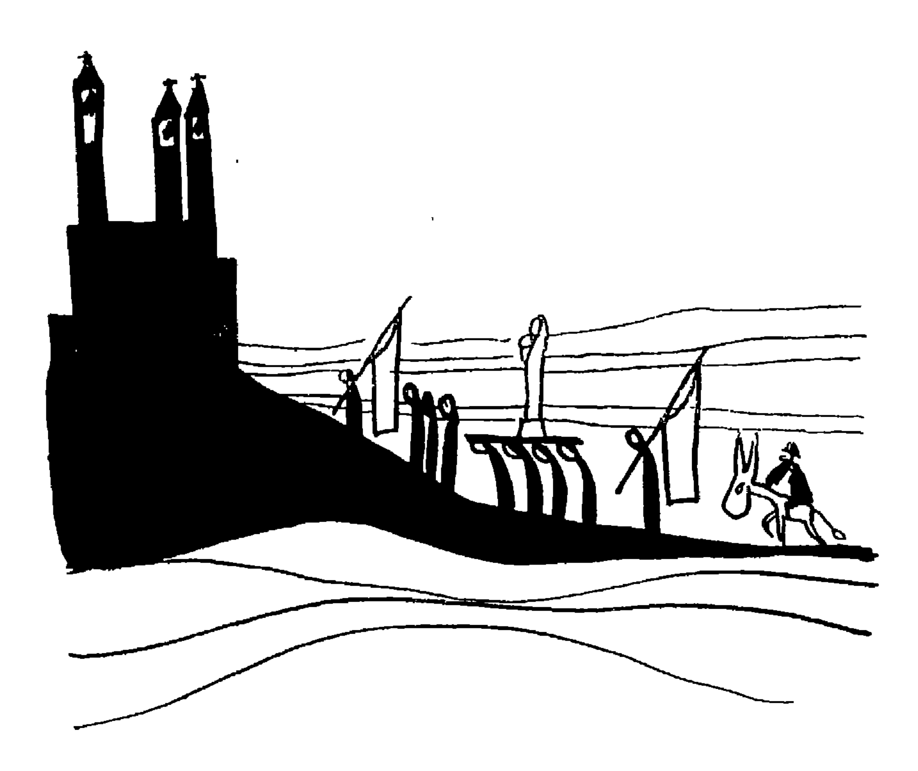
ووضعت في حاشية الكتاب : التحمير : ينبغي أن يوصف به على سبيل السخرية بالطبع! الرجل الأحمق الذي يصنف المعاجم .

(*) أفضل أباطرة الرومان وخيرهم ، تولى الحكم من سنة ١٦١ إلى ١٨ ، وقد اشتهر بحكمته واعتداله وولعه بالفلسفة والآداب -(ل-ع)

٥٦

الموكب الديني

لما دخلنا في شارع «لافوينتي» ونحن عائدون من البستان ، كانت الأجراس التي سمعناها ثلاث مرات من «لوس أورُوتيُوس» تهز القرية البيضاء بندائها وتتويجها البرونزي ، تترامى وتترامى بين صعود الصواريخ المزمجر ذي الشرر ، بسوادها في النهار ، والصياح المعدني للموسيقى .



والشارع وهو حديث عهد بطلائه بالجير وبالطين الأحمر في جانبيه كان يرتدي أشجار الحور والسعادي ؛ والنوافذ تتألق بالأغطية من قماش أحمر موشى ، وآخر من القطن أصفر ، وثالث سماوي واضح ، وحيثما كان حِدّاد فهو من الصوف الأبيض وبه أشرطة سوداء ، وعند آخر الدور في حنية «البورتشي» يظهر مسيح المرايا بطيئاً ، ومن بريق الغروب يأخذ ضوءَ الشموع الحمراء التي تقطر عليه كله لوناً وردياً ، ويمر الموكب على مهل ؛ الراية الحمراء «وسان روكي» راعي الخبازين محملاً بخبز رقيق ، ثم الراية الخضراء و«سان تيلمو» راعي الملاحين بسفينته الفضية في يديه ، ثم الراية الصفراء «وسان إيسدرو» راعي الزراع مع زوج من العجول ، ثم رايات أخرى بألوان أخرى وقديسون آخرون وفي عقب ذلك «سانتا أنا» تلقن العذراء الطفلة درساً ، و«سان خوسيه» بلونه القاتم ، والمطهرة بلونها الأزرق . . . وفي آخر ذلك كله فرقة الحرس بين الشرطة ، قد ازدانت أسلحتها الفضية المائلة إلى الأمام ، وهي تتحرك على مهل في سحابنها السماوية من البخور ، بكرات في أطرافها وأعناب زمردية فجة .

وفي المساء الهابط يتعالى اللاتيني الأندلسي للمزامير نقيّاً صافياً ، والشمس الوردية تكسر شعاعها السفلي الذي يطلع من شارع «رِيُو» في أحمال الذهب العتيق المزدانة به حلل الشمامسة وغفاراتُ الكهنة ، وفي العلياء حول البرج القرمزي فوق الحمرة اللامعة لساعة يونية في جلالها ، تنسج الحمائم أكاليل زهرها العالية من الجليد المتّقد .

وبلاتيرو في فراغ الصمت ينهق ، ووداعته تقترن بالناقوس والصاروخ واللاتيني وموسيقى «موديستو» ، وكلها تبدل لتوها السر الصافي للنهار ؛ والنهيق العالي المتطاول يرققها ويجعلها إلهية .

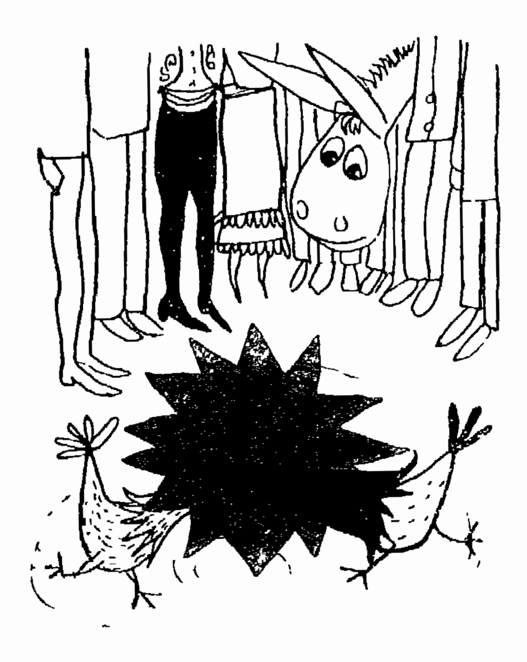
٥٧
جولة

ما أحلى أن نمضي في طرقات الصيف العميقة وقد تعلقت بها أزهار العسل الرقيقة! . وأنا أطالع أو أغني أو أنظم شعراً للسماء ، وبلاتيرو يعض عشبَ السياج القليل في الظل ، وأزهار الحبازي المغبرّة ، وأزهار الحماض المصفرّة ، وهو يقف أكثر مما يمشي فأدعه . . .

والسماء وهي زرقاء زرقاء أسدِّد إليها عيني في ذهول ، ترتفع فوق أشجار اللوز المثقلة إلى نهاية أمجادها ، والريف كله يتلألأ في صمته واشتعاله ؛ وفي النهر تخلُد دوّارة للهواء بيضاء لا ريح معها ؛ وتلقاء الجبال يجرح الدخان المتماسك للحريق سحبه السوداء المستديرة . لكن سيرنا قصير ، فهو كيوم رقيق مجرد من السلاح في غمرة الحياة المتكاثرة ؛ لا تأليه السماء ، ولا عالم ما وراء البحر الذي يمضي إليه النهر ، ولا مأساة اللهب . . .

وحين يترامى إلى السمع ، بين عطر البرتقال ، الحديدُ المبتهجُ الفضي للناعورة ينهق بلاتيرو ويثب من الفرح ؛ ما أيسرها من لذة في كل يوم . . وهنالك في البركة أملأ كأسي وأشرب من ذلك الجليد السائل ؛ وبلاتيرو يمد فمه في الماء الظليل ويعبّ من أصفى الماء وأنقاه هنا وهناك وهو به ضنين . . . .

٥٨
الديكة



لا أدري بما أقارن ذاك الضيق يا بلاتيرو . . . فهنالك ذروة راية حمراء قاتمة وذهبية ليس فيها متعة ، راية وطننا وهي فوق البحر أو فوق السماء الزرقاء . . . بلى ، لعلها راية إسبانية فوق السماء الزرقاء لحلبة من حلبات مصارعة الثيران . . . حلبة على طراز مُدَجّن* . . . ، كالمحطات التي من «والبة» إلى إشبيلية ، حمرة وصفرة منفّرة كالتي في كتب جالدوس** وعلى واجهات محال التبغ وفي اللوحات الرديئة للحرب الإفريقية الأخرى . . .

(*) هو في الفن المعماري الطرار الذي تدخله عناصر مسيحية مع زخارف عربية إسلامية والمدجنون هم المسلمون الذين عاشوا في الدولة المسيحية بإسبانيا (ل-ع)

(**) بيربت حالدوس كاتب إسباني خصب (١٨٤٣-١٩١٠) تزدان كتبه التي حمع فيها الفصول الوطنية بحلية من لون أحمر وأزرق -(ل-ع) .

ضيق كالذي طالما بعثته في نفسي مجاميع أوراق اللعب الرقيقة بما فيها من علامات كوشم الرعاة، وألوان علب التبغ وعلب الزبيب وعلامات زجاجات النبيذ وجوائز كلية «البويرتو» ورسومات ورق الشيكولاته . . .

إلى أين أنا ذاهب ومن يحملني؟ كان يخيّل إلي أن ظهيرة الشتاء الدافئة كبوق فرقة «مُودِسْتو» الموسيقية . . . كانت تفوح برائحة النبيذ الجديد، وجُشَاء سجق الخنزير والتبغ . . . هناك النائب مع العمدة ومع لِتري مصارع الثيران، ذلك الشديد اللامع من أبناء والبة . . . والحلبة المخصصة لعراك الديكة صغيرة خضراء، تحدّها وجوهٌ محتقنة تجاوزت السياج الخشبي كأنها أحشاء بقرة في عربة، أو أحشاء خنزير مذبوح، عيونها تأخذ الحر والنبيذ والدفع المنبعث من لحم القلب الغليظ . . .

وكانت الصيحات تخرج من العيون . . . والحر شديد، وكل شيء -يا لصفرة عالم الديكة- مقفل .

وفي الشعاع الضيق للشمس العالية التي ما فتئت تتخلّلها موجات من دخان أزرق بطيء فترسم منه ما يشبه بلّوراً مضطرباً كان الديكان الإنجليزيان المسكينان وكأنهما زهرتان شاذتان حادتان يتواثبان على السواء ويمزق أحدهما الآخر، ويأخذ كلاهما بعين أخيه، يبث فيه أحقاد الناس، ويمزقه بأظافره وعليها ليمون . . . أو سم، ولم تكن لهما جلبة ما، وعيناهما لا تبصران شيئاً بل لم يكونا هناك . . . ولكن أنا، لم كنت هناك على قبح ما في ذلك؟ لا أدري . . . وكنت من حين لآخر أنظر بحنين لا نهاية له من نسيج ممزق يرتجف في الهواء، فكان يخيّل إليّ أن شراع القارب على الشاطئ شجرة برتقال كاملة تعطر الهواء في الشمس الصافية بالحمل الأبيض من زهرها . . . ما أجمل أن يعطر روحي -كوني شجرة برتقال مزهرة، وكوني ريحاً صافية وشمساً عالية! . . . ومع ذلك لم أنصرف .

٥٩
الغروب

في الاجتماع الهادئ المتفرّع لألوان الشفق في القرية يا له من شعر توهّم البعيد والتذكّر المضطرب لما لا يكاد يُعرف إلا قليلاً . . إنها متعة تنتقل من نفس إلى نفس ، تصير معها القرية كلها وكأنها مثبّتة في صليب فكرةٍ حزينة طويلة .

هناك شميم الحبّ المتكاثر النقي الذي يؤلِّف في الأهراء ، تحت النجوم الغضة ، تلاله اللانهائية -يالسليمان!- الرقيقة المصفرّة ؛ والزراع يرددون أغانيهم من أجل ما هو أدنى في إعياءٍ حالمٍ ، والثكالى القاعدات في مداخل البيوت يفكرْن في موتاهن الذين يرقّدون غير بعيد منهن وراء الأفنية ، والأطفال يعْدُون من ظل إلى آخر كما يتنقل الطير من شجرة إلى أخرى . . .

وربما مرت بين الضوء الظليل الذي يتراءى في الواجهات الجيرية للدور الضارعة التي أخذت مصابيح الزيت تصبغها باللون الأحمر أشباحٌ أرضية صامتة متألمة كشحاذ جديد أو برتغالي يمضي ليحرث الأرض أو لص أحياناً ، وما منهم إلا من يناقض بمظهره المظلم الرهيب الوداعة التي يضعها الشفق برقته وهوادته وزهده في الأشياء المعروفة . . . والصبية ينأون ؛ وفي سر الأبواب التي لا ضوء فيها يدور الحديث عن قوم «يأخذون شحمَ الأطفال ليشفوا به بنت الملك المسلولة» . . . .

٦٠

الخاتم

كان ذلك على هيئة الساعة يا بلاتيرو ، تُفتح العلبة الفضية فيظهر ضاغطاً على قماش بنيّ اللون كأنه طائر في عشه . يا لها من أمنية راودتني يوم ظهر لي فيها بعد أن ضغطت لحظةً بكفي الأبيض الدقيق الفضي ذلك الختم .

فرنسسكو روِيث

مُغير

طالما راودني الحلم بخاتَم صديقي في كلية دون كارلوس! وبالروْسَم الذي لقيته في أعلى الدار في مكتبي حاولت أن أصنع واحداً باسمي ولكنه لم يُجْد وكان الطبع صعباً ، فلم يكن كالآخر الذي كان يخلِّف هاهنا وهاهنا سواء في كتاب أو في جدار أو في اللحم رسم الحروف .

فرنسسكو روِيث

مُغير

وذات يوم جاء إلى منزلي مع «أرْياس» صائغ الفضة في إشبيلية تاجر أدوات كتابية ؛ يا لسحْر ما معه من مساطر ودوّارات وحبر ذي ألوان مختلفة وخواتم وكان معه من ذلك جميع الصور والأحجام ، فكسرْتُ الصندوق الذي أحفظ فيه النقود واستخرجت خمسة قروش نقدته إياها من أجل أن يصنع لي خاتماً عليه نقش اسمي وقريتي ؛ ما كان أطوله من أسبوع ذلك الأسبوع! وما كان أشد نبض قلبي حين كانت تهل عربة البريد! ويا له من

عَرَق حزين كان ينضح به جلدي كلما ابتعدت خُطى ساعي البريد في المطر! وأخيراً أحضره لي ذات ليلة ؛ كان أداةً صغيرةً معقدة ومعها قلم وريشة وحروف أولية يوضع عليها شمع . . . ، شيء أجهله! وضغطت عليها فظهر الختم جديداً لامعاً .

هل بقي شيء يمكن أن يُختم في منزلي؟ هل هناك شيء لا أملكه؟ ولو طلب أحد مني الخاتم لقلت له : حذار أن ينفد ، وحينئذ ما أشد غمي! وفي اليوم التالي بأي سرعة فرحة حملت كل ما معي إلى الكلية! الكتب والسترة والقبعة والحذاء ويدي وعليها النقش :

خوان رامون خمينث

مُغير

٦١

الكلبة الوالدة

الكلبة التي أحدثك عنها يا بلاتيرو هي كلبة «لُباتو» الصياد ، وأنت تعرفه حق المعرفة لأننا كثيراً ما لقيناه في طريق «لوس إلْيانُوس» . . . أتذكر؟ تلك الذهبية البيضاء التي كأنها مغرب مغشى بالسحب في شهر مايو . . . ولدتْ أربعة صغار حملتهم «سالود» اللّبانة إلى كوخها في «لاس مادريس» إذ كان يحتضر طفل لها ، وأشار عليها «دون لويس» أن تعطيه مرق الكلاب الصغار ، وأنت تعلم ما هنالك من أمر دار «لباتو» عند قنطرة «لاس مادريس» حين يجتاز المرء «لاسْ تابْلاس» . . .

ويقال يا بلاتيرو إن الكلبة ظلت تمشي طول يومها ذاك كالمجنونة ، تدخل وتخرج وتتطلع إلى الطرق وتتقلّب في الشعاب وتشمّ الناس . . . ولقد رآها الناس ساعة الصلاة بجانب دار الحارس في «لوسْ هُرْنوس» وهي تنبح بحزن فوق بعض غرارات الفحم في الغروب .

وأنت تعلم شارع «أنميديو» في مجاز «لاسْ تابْلاس» . . . جعلت الكلبة تروح وتغدو أربع مرات في الليلة ، وفي كل مرة تأتي معها بجرو في فمها يا بلاتيرو ولما طلع الصباح وفتح «لباتو» بابه كانت الكلبة على العتبة تنظر بلذة إلى سيدها ، وصغارها جميعاً متشبثون في رعدة ساذجة بأثدائها الوردية الممتلئة . . . .

٦٢
هي ونحن

لعلها يا بلاتيرو مضت -إلى أين؟- في ذلك القطار الأسود المحترق بالشمس الذي إذ يطلع من الجادة العالية فوق السحب البيضاء يفر إلى الشمال .

أما أنا فقد كنت معك بمكان سفلي في القمح الأصفر المتموّج وكلّه يقطر من دم الفراشات التي يضع لها شهر يولية تيجاناً من رماد ، وكانت سحب الدخان السماوي -هل تذكرها؟- تُحزن الشمسَ والأزهار إلى حين وهي تحوم من غير جدوى إلى اللاشيء . . . .

رأس صغير أشقر يحرسه سوادا . . . كانت كرسْمٍ يتوهمه المرء في الإطار الهارب للنافذة .

لعلها تقول : تُرى من هذا الرجل المجلل بسواد الحداد وهذا الحمار الفضي؟ من نكون! نحن . . . حقيقة يا بلاتيرو؟

٦٣
العصافير

كان صباح سنتياغو مغشى بالسحب البيضاء والرمادية كأنه محروس بالقطن، وذهب الناس جميعاً للصلاة وبقيت أنا وبلاتيرو في بستان العصافير.

العصافير! عجباً لها وهي تحت السحب الدائرية التي ربما أمطرت قطرات رقيقة، تدخل النباتات المتسلقة وتخرج منها، عجباً لها وهي تصيح، ثم عجباً لها وبعضها يأخذ بمناقير بعض! هذه تسقط على غصن ثم تدعه وهو يهتز، وتلك تشرب قليلاً من السماء في غدير عند حافة البئر، وثالثة تثب على سطح الطنف المليء بزهر يكاد يكون جافّاً أنعشه اليوم المغبرّ.

عصافير مباركة ليس لها عيد معين! في الحركة المتماثلة الطليقة لكل ما هو أصيل ولكل ما هو حقيقي. لا تقول لها كؤوس الزهر شيئاً اللهم إلا سعادة مبهمة؛ فرحاتٌ دون التزام مفدور، ودون جنّات الآلهة أو نيرانها التي تسلب الألباب أو تثير الرعب في نفوس الناس العبيد المساكين، وليس لها من قانون أخلاقي إلا قانونها ولا إله سوى الزرقة، تلك هي أخواتي، أخواتي الحلوة.

يسافرْن من غير مال ومن غير حقائب، ويغيرن المنزل متى راق لهن ذلك، يلجأن إلى مسيل أو يجئن إلى ورقة شجرة، وما عليهن إلا أن يفتحن أجنحتهن لينلن السعادة، لا يعرفن أيام الاثنين أو أيام السبت، ويغتسلن

في كل مكان وفي كل لحظة ، ويعشقن الحب بلا اسم ، العالم المحبوب .

وحين يذهب الناس ، الناس المساكين ، للصلاة أيام الآحاد وقد أغلقوا أبوابهم إذا بهن يأتين في مثل فرح للحب بدون طقوس ، ولهن لغطٌ غض مبتهج ، إلى بساتين الدور المغلقة حيث يتأملهن تأمل الأخ لأخيه شاعر يعرفنه حق المعرفة أو حمار رفيق -أأنت معي؟ .

٦٤

فرسكو فيلث

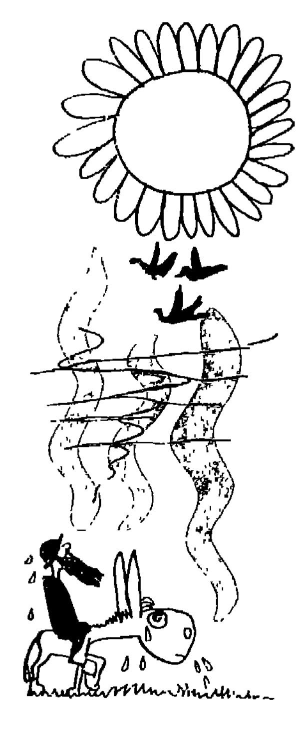
لا خروج اليوم يا بلاتيرو فقد قرأت منذ قليل في ميدان «لوس اسكِريبانوس» تعليمات العمدة :

«كل كلب يمشي في طرقات هذه المدينة الكريمة ، مدينة مُغير دون أن يحمل وسمه سيطلق عليه رجال الشرطة النار» .

معنى هذا يا بلاتيرو أن في القرية كلاباً جرباء ، ولقد سمعت أمس طلقات الرصاص من شرطة البلدية التي تطوف ليلاً وهي أيضاً مما عمله فرسكو فيلث ، سمعتها في «منتريو» وفي «كاستيلو» وفي «تراسموروس» و«لوليتا» الحمقاء تقول بصوت عالٍ عند الأبواب والنوافذ إنه لا وجود لهذه الكلاب الجرباء ، وإن عمدتنا الحالي ، شأنه شأن العمدة السابق فاسكو الذي كان يخيف الناس ، يلتمس العزلة التي تكفلها طلقاته ليشرب ما معه من زبيب التين .

ولكن إذا كان هذا صحيحاً وعضك كلب أجرب؟ لا أريد أن أفكر في هذا يا بلاتيرو!

٦٥
الصيف



بلاتيرو يمضي وهو يقطر دماً ، دماً غليظاً قاتماً ، من عض الذباب . والصرصر ينشر شجرة الصنوبر دون أن يستطيع . . . ولما فتحت عيني بعد حلم هائل لم يستغرق سوى لحظة استحال منظر الرمل إلى أبيض ، بارد في وقدته ، خيالي .

وكانت شجيرات الشعر* الواطئة مرصعة بأزهار كبيرة متراخية ، وورودٍ من الدخان ومن الغاز ومن ورق الحرير ، مع أربع دموع من الحمرة القانئة ، ثم ضبابٌ يخنق الأنفاس يكسو أشجار الصنوبر الصغيرة بلون جيري ، وإذا بطائر لم تقع عليه العين قط ، أصفر اللون يزينه خال أسود ، يخلُد وهو صامتٌ في غصن من الأغصان .

وحراس الحقول يدقّون على النحاس الأصفر ليُفزعوا الغربان التي تأتي في أسراب سماوية كبيرة على البرتقال . . . حتى إذا وصلنا إلى ظل شجرة

---

* هي المعروفة بأم الشعور واسمها الإسباني مشتق من العربي -(ل-ع) .

الجوز الكبيرة قطعتُ بطيختين تنفتحان عن جليدهما السكري بلونه الأحمر القانئ والوردي في صوت طويل غض ، فأكلت بطيختي على مهل وأنا أسمع من بعيد ضوضاء القرية المقتربة ، وراح بلاتيرو يشرب لحم السكر من بطيخته كأنه ماء .

٦٦
نار في الجبال

الناقوس الضخم . . . ثلاث . . . . أربع دقات . . . . . نارا!

تركنا العَشاء ، ولما ضاق الصدر بالضيق الأسود للدرج الخشبي صعدنا إلى السطح في صمت أليم قلق .

-في ريف لونينا!- هكذا صاحَتْ أنيلْيا التي كانت في أعلى الدار ، وهي تهبط على الدرج ، قبل أن نخرج نحن إلى الليل . .

تان تان تان تان! ولما وصلنا إلى الخارج -أي متنفس! . كان الناقوس ينقّي دقته الشديدة الصائتة ويطرق ويثقل على قلوبنا .

- إنها كبيرة ، كبيرة . . . إنها نار طيبة . . . .

بلى . في الأفق الأسود لأشجار الصنوبر كان اللهب البعيد يبدو هادئاً في نقائه المتفاوت ، كان كالمينا السوداء والزنجفر ، يشبه لوحة الصيد «لبيرو دي كوسيمو» التي تبدو فيها النار موسومة بألوان سوداء وحمراء وبيضاء صافية ، وأحياناً يتألق اللون شديداً ، وأحياناً أخرى يكاد الأحمر يكون وردياً في لون القمر الوليد . . .

وليل أغسطس عالٍ وساكن ، ويمكن أن يقال إن النار فيه ستظل إلى الأبد كأنها عنصر خالد . . . إذا بنجمة هاربة تعدو في وسط السماء وتهوي في الزرقة فوق «لاسْ مُنْخَاس» . . . أنا مع نفسي .

ولكن نهيق بلاتيرو هنالك أسفل المكان في الفناء يردني إلى الواقع . . . وهبط القوم جميعاً . . . وفي رعدة يجرحني فيها لينُ الليل الذي

يمتد إلى جني الثمر أحس كأنما قد مر بجانبي ذلك الرجل الذي كنت أعتقد في طفولتي أنه يحرق الجبال ، من طراز ببيبي «الفرخ*» -أوسكارويلد من أهل مغير- لكنه يميل إلى الشيخوخة ، أسمر ، في رأسه شعرات بيض مفلفلة ، وقد ارتدى تخنّثه المستدير سترة سوداء وسراويل فيها مربعات بيضاء وبنيّة ، وتبرز من جيوبها عيدان كبريت طويلة من جبل طارق . . .

(*) لقب الإنسان (ل-ع) .

٦٧

المسيل



هذا المسيل يا بلاتيرو هو جاف الآن ، ومنه نمضي إلى مرعى الخيل ، يوجد في كتبي العتيقة الصفراء أحياناً كما هو ، بجانب البئر الأعمى في مرجه ، بفراشاته التي تغمرها الشمس وأشجاره الهاوية ، وأحياناً أخرى يبدو في هيئات متراكبة وتغيرات رمزية ، وقد انتقل بإحساسي إلى أماكن نائية إما لا وجود لها وإما يحوم حولها الظن فقط . . .

فيه يا بلاتيرو تألّق تخيلي المبتسم أثناء طفولتي كالحسك حين يتعرض للشمس ، واستمتعت بأول ما عثرت عليه ، حين علمت أنه أي مسيل «لوس إليانوس» هو نفس المسيل الذي يشطر طريق «سان أنطونيو» من الغابة المؤلفة من أشجار الحور المفْردة ، وإذا مشى فيه المرء ، وهو جاف في الصيف ، وصل إلى

هاهنا ؛ وإذا ألقى فيه إنسان قارباً من الفلّين هناك في أشجار الحور أثناء الشتاء جاء إلى هذه الرمانات أسفل قنطرة «لاس انحستياس» ، وهي ملاذي حين تمر الثيران . . .

ما أمتع هذا لخيالات الطفولة يا بلاتيرو ، ولا أدري إن كان يتهيأ لك الآن أو تهيأ لك من قبل! كل شيء يجيء ويذهب في تغير ممتع ، يتراءى كل شيء ولا يتراءى شيء إلا كالأثر الموقوت للتخيل . . . ويمشي أحدنا كالشبيه بالأعمى ينظر كثيراً في الظاهر كما ينظر في الباطن ، وربما قَلَب في ظل الروح أثقال صور الحياة ، أو فتح للشمس ، كالزهرة الثابتة يضعها في شاطئ حقيقي ، شعر الروح المضيئة الذي لا يلقاه بعد .

٦٨
الأحد

كانت جلجلة الناقوس وهي قريبة حيناً بعبدة حيناً آخر تدوّي في السماء صباح العيد كأن الزرقة كلها صارت بلّوراً ، وبدا الريف وهو مريض كأنه مذهّب من الأنغام الساقطة للطيران الفرح المزدهر .

والناس جميعاً بما فيهم الحارس ذهبوا إلى القرية ليروا الموكب ، وبقينا وحدنا أنا وبلاتيرو ، ياله من سلام! وياله من صفاء! ويا لها من رفاهية! وأترك بلاتيرو في المرج العالي ، وأستلقي تحت شجرة صنوبر مليئة بالطيور التي لا تُرى لأطالع شعر عمر الخيام . . .

وفي الصمت الذي يبقى بين دقتين يتراءى للغليان الداخلي لصباح شهر سبتمبر وجودٌ وصوتٌ ، والزنابير السوداء تطير من حول الكرمة المثقلة بعناقيد العنب السليمة ، والفراشات التي تمشي مختلطة بالأزهار يبدو أنها تتجدد وتتخذ صورة أبي حسون وهي تطير ؛ والوحدة إنما هي فكرة ضوء عظيمة .

من حين لآخر يكف بلاتيرو عن الأكل وينظر إليّ . . . وأنا من حين لآخر أكف عن القراءة وأنظر إلى بلاتيرو . . . .

٦٩
غناء الصرصر

أنا وبلاتيرو نعرف حق المعرفة من سُرانا بالليل غناء الصرصر .

فالغناء الأول للصرصر في الشفق مهتز خفيض حاد ، ثم يغيّر النغمة ويتعلم من نفسه ، ويأخذ في الصعود شيئاً فشيئاً ويستقر في مكانه كما لو كان يلتمس اتساق المكان والساعة ، حتى إذا كانت النجوم في السماء الخضراء الشفافة اكتسب الغناء حلاوة موسيقية تشبه الجلاجل الطليقة .

والنسمات الغضة الساكنة تروح وتغدو ، وتتفتح أزهار الليل من كل جوانبها ، ويسري في السهل إكسير إلهي صاف من مروج مختلطة زرقاء ، سماوية وأرضية ، ويتسامى غناء الصرصر فيملأ الريف كله كأنه صوت ظل ، ولا يتردد ولا يسكت ، وكل نغمة وكأنها تنبع من ذاته توأم لنغمة أخرى ، في أخوة من بللور تغشاه ظلمة .

وتمضي الساعات في جلالها ، لا حرب في العالم ، ويرقد الزارع وهو يرى السماء في القاع الأعلى لحُلْمه ، وربما مشى الحُبّ بين النباتات المتسلقة لجدار وهو منتشٍ هائم والعينان في العينين ؛ وتبعث حقول الفول إلى القرية برسائل من عطر رقيق كأنها في شباب طليق ، أبيض عارٍ ؛ وسنابل القمح تتموج وهي خضراء من القمر ، وتتنفس في الريح الساعة الثانية والثالثة والرابعة . . . وغناء الصرصر بصليله قد ضاع . . .

ها هوذا! يا لغناء الصرصر في الفجر حين أذهب أنا وبلاتيرو وقد أخذتْنا الرعدة إلى الفراش تغشانا رطوبة بيضاء! والقمر يتساقط وهو أحمر

حالم والصرصر منتش من القمر ، سكران من النجوم ، رومانتيكي هائم منتشر ، كان ذلك حين أقبَلتْ سحبٌ كبيرة باكية ، يحيط بها لونٌ بنفسجي أزرق حزين ، فانتشلت النهار من البحر على مهل . . .

٧٠

مصارعة الثيران

لعلك لا تعلم يا بلاتيرو لمَ يأتي هؤلاء الأطفال؟ قد يُظن أني تركتهم يحملونك ليطلبوا معك المفتاح في مصارعة الثيران هذا المساء، ولكن لا تضق ذرعاً، فقد نبهتهم إلى ألا يدور لهم ذلك بخلد . . . يأتون مجانين يا بلاتيرو . . . والقرية كلها في هرج ومرج من أجل المصارعة، فالفرقة الموسيقية تعزف منذ الفجر موسيقى متقطعة متنافرة أمام الحانات، وتروح وتغدو عربات وخيول صاعدة في الشارع الجديد وهابطة في الشارع القديم، وهناك في الزقاق الخلفي تهيأ «الكاناريو» وهي تلك العربة الصفراء التي تعجب الأطفال ليركبها حملة السهام، والأبهاء قد خلت من الأزهار وهيِّئت للرئيسات ويثير الألم رؤية الصبية وهم يمشون على غير هدى في الطرقات بقبعاتهم العريضة وأرديتهم ولفائف التبغ الغليظة، تفوح منهم رائحة الخيل والزبيب .

وفي الساعة الثانية يا بلاتيرو، في لحظة الوحدة المشبوبة بالشمس، في الفراغ الواضح للنهار، بينما يلبس المصارعون والسيدات ثيابهم سنخرج أنا وأنت من الباب الخلفي ونمضي في الزقاق إلى الحقل كالعام الماضي . . .

ما أجمل الحقول في أيام الآحاد التي يهجرها فيها الناس جميعاً! قلما يميل عجوز في كرم من الكروم أو بستان من البساتين نحو الكرمة العذراء أو النبع الصافي . . . ويتصاعد من بعيد فوق القرية الصياح المستدير وتصفيق الأكف وموسيقى حلبة المصارعة كأنها تاج غليظ، ثم يتلاشى ذلك كله

كلما مضى المرء ساكناً إلى البحر . . . والروح «يا بلاتيرو» تحس بكونها ملكة الجسم الكبير السليم للطبيعة التي تعطي لمن يستحق الإجلال المنظر الضارع المتألق الخالد .

٧١
عاصفة

خوف ونفَس مكبوت وعرق بارد ، السماء الرهيبة المنخفضة تغرق الشروق (لا مهرب لأحد) صمت . . . الحُب يقف ، والإثم يرتجف ، والندم يُغمض العيون .

صمت آخر . . .

الرعد وهو أصم مدوٌ لا ينتهي ، كأنه تثاؤب لم ينقضِ ، أو حمل ثقيل من الحجر يسقط من سمت السماء على القرية ، يجتاز بطوله الصباح المهجور . (لا مفر لأحد) والأشياء الضعيفة كالأزهار والأطيار تختفي من الحياة . . .

وينظر الفزعُ خائفاً من النافذة نصف المفتوحة إلى الله المتجلي في جبروته ، وهنالك في المشرق تتراءى بين قطع السحاب أزهار الخبازي وورود حزينة متسخة باردة لا تستطيع أن تهزم السواد ، وعربة الساعة السادسة التي كأنها الساعة الرابعة تقبع في الزقاق غارقة في فيضان ويغني سائقها ليخيف الفزع ، ثم تتلوها عربة الحصاد فارغة تكر بسرعة . . .

وإذا بَملك ملكٍ شديد في عزلة ينتحب بين الرعد . هل هو آخر ملك في العالم؟ ويود المرء لو يكفٌ الناقوس عن دقاته سريعاً أو يدوي بشدة ليغرق العاصفة ، ويذهب المرء من مكان إلى آخر ويبكي ولا يدري ماذا يريد . . .

(لا مفر لأحد) القلوب متوترة والأطفال ينادون من كل مكان . . .

– ترى ماذا وقع لبلاتيرو وهو وحده في زريبة الفناء وليس فيها ما يحميه؟

٧٢
قطف العنب

في هذا العام يا بلاتيرو ما أقل الحمير التي أتت بالعنب! لا جدوى فيما تقوله اللافتات الكبيرة : بستة دراهم . أين حمير «لُوثينا» و«المونت» و«بالوس» وهي محملة بذهب سائل مضغوط يقطر ، مثلك معي ، دماً ؛ تلك الحمير التي كانت تنتظر ساعات وساعات إلى أن تُفرغ المعاصر ، والعصير يتدفق في الشارع ، والنساء والأطفال يملؤون الجرار والأباريق والقدور . . . .

ما كان أشد فرح معاصر الخمر في تلك الآونة يا بلاتيرو ، معصرة «ديثمو»! تحت شجرة الجوز الكبيرة التي سقط عريشها كان عاصرو الخمر يغسلون الزّقاق ، وهم يغنون ، بحركة غضة صائتة ثقيلة ، ثم يمضي الذين يفرغون العصير في الأواني وأرجلهم عارية وبأيديهم جرار العصير أو دم الثور وهو يتراءى حيًّا مزبداً ، وهناك في الداخل تحت الطنف بدق صانعو البراميل دقات مدوية وهم في نشارة الخشب النظيفة التي تفوح بالرائحة . . . . كنت أدخل «الميرانت» من باب وأخرج من باب آخر وهما البابان الفرحان اللذان يهب كل منهما للآخر مظهر الحياة والضوء –بين عطف الذين يعصرون الخمر . . . .

عشرون معصرة كان يطؤها هؤلاء ليلاً ونهاراً ، يا للجنون واختلال العقل ويا للتفاؤل الشديد! وفي هذا العام يا بلاتيرو كل المعاصر نوافذها مغلقة ، ومعصرة الفناء وبها اثنان أو ثلاثة من الذين يعصرون ، فيها الكفاية والغناء .

والآن يا بلاتيرو لا بد أن تعمل شيئاً فلا يجوز أن تظل دائماً كسلان .

. . . . وظلت الحمير الأخرى تنظر وهي محملة إلى بلاتيرو وهو طليق من أهل البطالة ، ولكيلا يريدوا به شراً أو يظنوا به السوء ذهبت معه إلى الكرمة المجاورة وحمّلته عنباً ومضيت به إلى المعصرة على مهل بين الحمير . . . وبعد ذلك أخذته من هناك في الخفاء . . .

٧٣
ليلا

تترامى في القرية وهي في العيد مضاءة بحمرة نحو السماء أنغام فالس حادة لها حنين في الريح الرقيقة ، ويتراءى البرج مغلقاً داكناً صامتاً في برزخ بنفسجي أزرق مصفر . . . وهنالك خلف معاصر الخمر المظلمة في ربض القرية يطلع القمر وهو متساقط مصفر حالم على النهر .

الريف وحده مع أشجاره وظل أشجاره ، وهناك غناء متقطع لصرصر ، وحديث المياه الخفية كحديث المتكلم في النوم ، وطراوة رطبة كأن النجوم تنحل وتتفكك . . . وبلاتيرو من الجو الفاتر في مسكنه ينهق بحزن .

العنز تمشي متيقظة وجرسها يواصل دقاته في هيجان أول الأمر وفي حلاوة بعد ذلك وأخيراً يسكت . . . وعلى بعد في ناحية «منتيمايور» ينهق حمار آخر . . ثم ثالث ينهق في «فالْيخْويلو» . . . وينبحُ كلب . . .

والليلة من الصفاء بحيث تُرى الأزهار من لونها كشأنها أثناء النهار ، وعند آخر دار من دور شارع «لافْوِينْتِ» تحت قنديل أحمر يتذبذب ، يعرج في الزقاق رجل منفرد . . . .

أنا؟ . كلا ؛ أنا في الظل السماوي العاطر المتحرك الذهبي الذي يصنعه القمر وتصنعه أزهار اللّعل والنسمة والظل ، أصغي إلى قلبي العميق وحده . . .

والكون يتحرك وهو غض يتصبب عرقاً . . .

٧٤

سريتو



كنت ذات مساء في كرمة المسيل لأقطف العنب ، فجاءت النساء يقلن لي إن أسود يسأل عني ، وكنت في طريقي إلى الكرمة حين أتاني من أسفل الطريق :

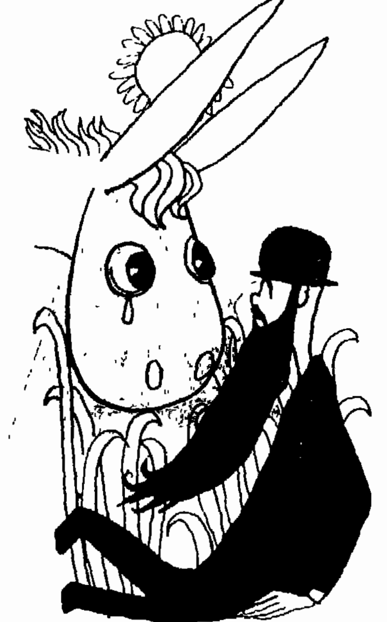
– سريتو

وكان سريتو خادم «رُوسَالينا» مخطوبتي البورتوريكية ، هرب من إشبيلية –ليصارع الثيران في القرى ، وقدم من «لَبْلة» ماشياً ، ورداؤه ، الملون مرتين ، على كتفه ، وهو جائع لا مال معه .

وكان قاطفو العنب ينظرون إليه شزراً ، بازدراء سيئ . غير ظاهر ، والنساء يتجنبنه من أجل الرجال أكثر مما يتجنبنه من أجل أنفسهن ، وكان قبل أن يمضي إلى المعصرة قد صارع فتى قطع أذناً له عضها .

تبسمْتُ له وتحدثت إليه برفق ، وراح سريتو ، ولم يجرؤ على أن يدللني ، يدلل بلاتيرو الذي كان يمشي هناك ويأكل من العنب ، وجعل ينظر إليّ طويلاً نظرة كريمة .

٧٥
الرقدة الأخيرة في العصر



يا للجمال الحزين الأصفر الذي لا لون له ، جمال الشمس بعد الظهيرة حين أستيقظ تحت شجرة التين! نسمة جافة معطرة من الشّعْرة المنتشرة تدلّل يقظتي التي تتصبب عرقاً ، والأوراق الكبيرة للشجرة العتيقة الرقيقة تتحرك حركة خفيفة فتحزنني أو تبهرني ، كأنها تهدهدني برقة في سرير يذهب من الشمس إلى الظل أو من الظل إلى الشمس .

وعلى بعد تدق الأجراس معلنة الساعة الثالثة . في القرية المهجورة بعد الحفيف البلّوري للهواء ، ولما سمعها بلاتيرو ، وكان قد سرق مني بطيخة كبيرة بها جليد سكري أحمر ، نهض على قدميه جامداً ونظر إليّ بعينين هائلتين حائرتين تمشي فيهما ذبابة خضراء تسيل منها مادة لزجة .

وبإزاء عينيه المكدودتين تعبت عيناي مرة أخرى . . . -وتبدلت النسمة كأنها فراشة تريد أن تطير ، ولكن ينطوي جناحاها على حين غرة . . . جناحاها . . جفْناي الضعيفان اللذان يغمضان على حين غرة . . .

٧٦
النيران

كنا في الليالي التي نسهرها في شهر سبتمبر نتخذ مكاننا على التل القائم خلف الدار التي في البستان لِنُحِسّ بالقرية وهي في عيد ، من ذلك السلام العاطر الذي ينبعث من الناردين في البركة ، وكان «ببوثا» حارس الكروم العجوز وهو سكران في أرض الكرمة ، يعزف بُزُقه ووجهه إلى القمر .

وفي المساء كانت تشتعل النيران ، فهي أولاً ألسنة صماء صغيرة ، وهي بعد ذلك نجوم من غير ذنب تتفتح إلى أعلى وهي تتنفس ، كأن عيناً نجمية ترى الريف في لحظة من اللحظات أحمر وبنفسجيّاً وأزرق ؛ وأخرى يتساقط ضوؤها كأنها بكارة عارية يتثنى ظهرها ، كصفصافة من دم تقطر أزهاراً من الضوء .

يا لها من طواويس متقدة ، وكتل خيالية من الورد الصافية ، وديوك برية من النار في جنات النجوم!

وبلاتيرو كلما صوّت صوت ارتعد فرقاً وهو أزرق وبنفسجي وأحمر في الضوء المفاجئ للفراغ ، وفي الوضوح المتذبذب الذي يكبر ظله ويطامن منه على التل ؛ كنت أرى عينيه الكبيرتين السوداوين وهما تنظران إليّ في فزع .

وأخيراً يصعد إلى السماء المزدانة بالنجوم بين الأصوات البعيدة للقرية الإكليل الذهبي الدائر للحصن وصاحب الرعد الغليظ الذي يغمض العيون ويغطي أسماع النساء ، وبلاتيرو يفرّ بين الكروم العذراء كأنه روح يحملها الشيطان ، وهو ينهق في جنون ، إلى أشجار الصنوبر الهادئة في الظل .

٧٧
الروضة

أردتُ وقد جئنا إلى العاصمة أن يرى بلاتيرو الروضة . . . وصلنا على مهل والنافذة أسفل منا في الظل الناعم لأشجار الطلح وأشجار الموز المحملة بثمراتها وكان لخطْو بلاتيرو صوتٌ في البلاطات الكبيرة التي تلمع من السُّقيا ، وهي في مواقع زرقاء من السماء ، وفي مواضع أخرى بيضاء من الزهر الساقط الذي ينبعث منه مع الماء عطر حلو رقيق .

يا للنضارة وللعطر اللذين يخرجان من البستان يرطِّبُه الماء أيضاً بتتابع أضواء اللبلاب في النافذة وهو يقطر! وفي الداخل يلعب الأطفال ، وبين تموّجهم الأبيض تمر عربة الطريق ولها صخب وجلبة بأعلامها البنفسجية وغطائها الأخضر ، ثم قارب بائع البندق وكلّه مزدان بالعقيق والذهب مع الجبال المرصعة بالفول السوداني ومدخنته المغبرة ، والطفلة التي تحمل النفاخات معها عنقودها الضخم الطائر الأزرق والأخضر والأحمر ، والملاح مستسلم تحت عارضته الحمراء . . . وفي المساء حيث كتلة الخضرة التي مستها شرور الخريف وحيث أشجار السرو والنخيل تدوم وهي في خير ثيابها ، يمضي القمر المصفرّ محترقاً بين السحب الوردية . . .

وهنالك في الباب إذ أهم بدخول الروضة يقول لي الرجل الأزرق الذي يحرسها بعصاه الصفراء وساعته الفضية الكبيرة :

- يُمنع دخول الحمار يا سيدي .

- الحمار؟ أي حمار؟

قلت له ذلك وأنا أنظر فيما وراء بلاتيرو وقد نسيتُ بطبيعة الحال صورتَه الحيوانية .

- أي حمار كان يا سيدي! أي حمار . .!

عندئذ عدت إلى الواقع ، وإذا كان بلاتيرو «لا يجوز له أن يدخل» لكونه حماراً فأنا لكوني إنساناً لا أريد أن أدخل وإنما أمضي معه مرة أخرى ، والنافذة في أعلى ، وأنا أدلّله وأتحدث إليه عن شيء آخر . . .

٧٨

القمر

شرب بلاتيرو شربتين من الماء مع نجوم في بئر الفناء ثم عاد إلى زريبته على مهل هائماً بين أزهار عباد الشمس العالية ، وكنت أنتظر على الباب وأنا مستلق على الحافة الجيرية وملتف في العطر الرقراق لعباد الشمس .

وعلى السطح الرطب من لين شهر سبتمبر ينام الريف البعيد الذي جعل يرسل نفساً قويّاً من أشجار الصنوبر ، وإذا بسحابة كبيرة سوداء كأنها دجاجة ضخمة تضع بيضة ذهبية أتت بالقمر فوق التل .

قلت للقمر : ولكن . . .

ينبغي أن تكون وحدك في السماء .

حتى لا يراك أحد وأنت تسقط إلا في الأحلام .

وظل بلاتيرو يحدق فيه طويلاً ثم حرك إحدى أذنيه بجلبة شديدة لينة ، ونظر إليّ وهو حيران وهزّ الأذن الأخرى . . .

٧٩
فرحة

بلاتيرو يلعب مع «ديانا» الكلبة الجميلة البيضاء التي تشبه القمر النامي ومع العنزة العجوز الرمادية ومع الأطفال . .

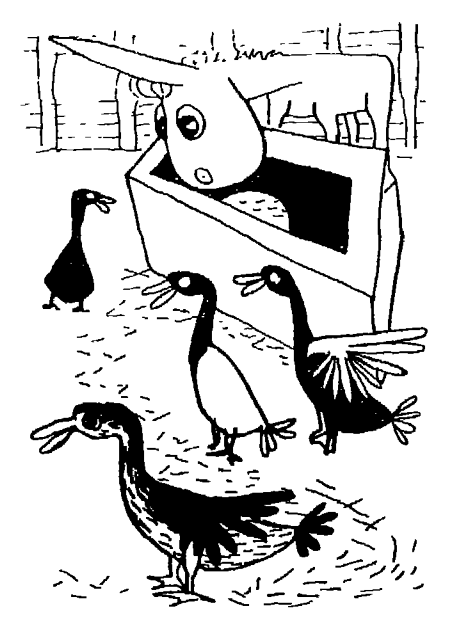
تثب ديانا في براعة ورشاقة أمام الحمار ويجلجل جرسها الخفيف وتأتي بحركات كما لو كانت تعضه في وجهه ، وبلاتيرو يرفع أذنيه كأنهما قرنا صبارة ، ويهاجمها ويجعلها تحوم حول العشب المزهر .

والعنزة تمضي إلى جنب بلاتيرو وهي تمسّح بأرجله ، وتجذب بأسنانها أزهار ذنب الهروهى في الحمْل . ثم تظهر أمامه وفي فمها خزامى وأقحوانة ، وتمس جبهته ، ثم تثب بعد ذلك ، وتثغو وهي فرحة ، لها دلال كأنها امرأة . . .

وبلاتيرو بين الأطفال ألعوبة ، ما أعظم صبره على حماقاتهم! عجباً له وهو يمضي على مهل ويتوقف ويتباله حتى لا يسقطوا! ثم لا يلبث أن يُفزعهم إذ يبدأ بخطو زائف!

يا لها من أمسيات صافية للخريف في مغير! حين يشحذ الهواء النقي في شهر أكتوبر الأصوات التي تصعد من الوادي في جلبة شاعرية من الوثبات والنهيق وضحكات الأطفال ونباح الكلاب ودقات الأجراس . . .

٨٠
البطات تمضي



ذهبت لأعطي بلاتيرو ماء ، وفي الليلة التي يكسوها جلال وكلها سحب هائمة ونجوم ، يترامى إلى السمع في أعلى الأماكن ، من صمت الريف ، تتابعٌ متصل لهزات صافية . إنها البطات ، تمضي إلى الداخل هاربة من العاصفة البحرية ، ويستمع المرء من حين لآخر كأننا نصعد أو كأنها تهبط ، إلى الحفيف الخفيف لأجنحتها ومناقيرها كأنما تسمع في الريف لفظة واضحة ينطق بها إنسان يمضي بعيداً . . .

وبلاتيرو يكف من حين لآخر عن الشرب ، ويرفع رأسه كما أرفعها

وكما ترفعها نساء ميليه* إلى النجوم بحنين غض لانهائي .

(*) جان فرانسوا ميليه رسام فرنسي اشتهر برسم المناظر الطبيعية (١٨١٥-١٨٧٥) .

٨١
طفلة صغيرة

كانت الطفلة الصغيرة مجد بلاتيرو ، لا يكاد يراها مقبلة نحوه بين الشجيرات ذات الأزهار البيضاء والحمراء في ثوبها الأبيض وقبعتها المصنوعة من قش الأرز وهي تناديه بحنان : بلاتيرو ، بلاتيريّو! «حتى لو حطّم الزريبة وقفز كأنه طفل ونهق بجنون» .

تمضي في ثقة عمياء مرة وأخرى من تحته وتلطمه وتترك له يدها وهي ناردين طاهرة في ذلك الفم الوردي الكبير المزدان بأسنان كبيرة صفراء ، أو تأخذه من أذنيه اللتين يضعهما في متناول يدها وتناديه بشتى صيغ التدليل لاسمه :

بلاتيرو! بلاتيرون! بلاتيريّو! بلاتيريتي! بلاتيرتْشو!

وفي الأيام الطويلة التي أبحرت أثناءها الطفلة في مهدها الفجري أسفل النهر نحو الموت لم يذكر أحد بلاتيرو ، وكانت في هذيانها تناديه بحزن : بلاتيرو . . .

ومن الدار المظلمة المليئة بالزفرات كان يسمع أحياناً النداء البعيد الشاكي للصديق ، يالك من صيف حزين!

يا لـلترف الذي وضعه الله فيك يا مساء اللحد! وكان سبتمبر الوردي الذهبي كما هو الآن ينحدر ويميل ، ومن المقبرة ، يا لدقات ناقوس العودة في الغروب المفتوح على طريق المجد! . . . عدْتُ من طريق الطوابي وحدي وأنا حزين كئيب ، ودخلت الدار من باب الفِناء ، ومضيت وأنا هارب من الناس إلى الزريبة وجلست أفكر مع بلاتيرو .

٨٢
الراعي

في التل الذي جعلَتْه الساعة البنفسجية مظلماً مرتجفاً راح الراعي الصغير وهو أسود في الغروب الأخضر للبلّور ، يصفر في مزماره تحت اهتزاز فينوس والأجراس الصافية الحلوة للقطيع الذي تفرّق لحظة قبل أن يدخل القرية في المكان المعهود ، تصلصل وهي ساكنة متداخلة في الأزهار التي يزداد فرحها ولا تبدو للعين ولكن يمجّدها العبير حتى ليكاد يعطيها صورة مجسمة في الظل الضائعة فيه .

– يا سيدي ، لو كان هذا الحمار لي . .

وكان الصبي ، وهو أشد سمرة وشِعْراً في الساعة الموحية بالشك ويلتقط في عينيه السريعتين كل بريق لساعته ، كأنه واحد من أولئك الشحاذين الذين رسمهم الإشبيلي الطيب «بارْتُولومي استبان» .

وهممت أن أقول للحمار . . . ولكن ماذا أفعل بدونك يا بلاتيرو؟

وأخذ القمر الذي يتصاعد مستديراً فوق صومعة «مونتمايُور» ينشر نوره برقة في المرج الذي ما فتئت تطوف به أضواء النهار العائمة ، والأرض المزدهرة في تخيل لمن يراها كأنها من عالم الأحلام وما لا أدريه من وعاء بدائي جميل ، والصخور أكبر وأقرب وأشد حزناً ، وماء المسيل يبكي ولا يُرى . . .

والراعي الصغير يصيح من بعيد وهو طامع :

آي . . .! لو كان هذا الحمار لي . . .

٨٣
الكناري يموت

انظر يا بلاتيرو ، كناري الصبية أصبح اليوم ميتاً في قفصه الفضي ، حقاً . لقد كان المسكين هرماً . . . فأنت تذكر جيداً أنه قضى الصيف الأخير ساكتاً ورأسه مختف في زغبه ، ولما دخل هذا الربيع والشمس قد صنعت من المنزل المفتوح جنةً من الجنات وتفتحت أحسن ورود البهو ، أراد هو أيضاً أن يحتفل بالحياة الجديدة وغنى ، ولكن صوته كان متقطعاً مبهوراً كأنه صوت مزمار منكسر .

ورآه أحد الصبية ، وكان يرعاه ، جامداً لا حراك به في قاع القفص فأسرع وهو يبكي ويقول :

- ولكن لم يكن ينقصه شيء ، لا طعام ولا ماء! .

بلى لم يكن ينقصه شيء يا بلاتيرو ؛ مات لأنه كذلك كما يقول كامبو آمور* وهو كناري آخر عجوز . . .

يا بلاتيرو ، هل للطير فردوس؟ هل هناك روضة خضراء فوق السماء الزرقاء كلها أزهار من ورود ذهبية لها أرواح طيور بيضاء ووردية وسماوية وصفراء؟ اسمع ، في الليل سنهبط أنا وأنت والصبية بالطائر إلى الحديقة ؛ القمر الآن ممتلئ ، ولدى فضته الشاحبة سيبدو المغنّي المسكين في اليد الطاهرة «لبلانكا» كأنه ورقة حزينة لسوسنة مصفرة ؛ سندفنه في أرض

(*) رامون دي كامبو آمور شاعر وكاتب إسباني (١٨١٧-١٩٠١) (ل-ع) .

شجرة الورد الكبيرة .

وفي الربيع يا بلاتيرو سنرى الطائر يخرج من قلب وردة بيضاء ويتمثل الهواء العاطر مغرّداً ، ويتراءى في تلمس أبريل تطواف ممتع لأجنحةٍ تظهر وتيار سري سائل لأنغام متعاقبة صافية من الذهب النقي .

٨٤

التل

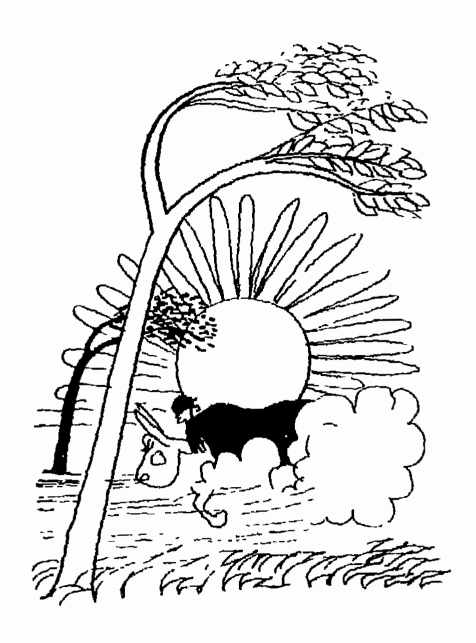
لم ترني قط يا بلاتيرو وأنا مستلق في التل رومانتيكياً وكلاسيكيّاً في آن واحد .

تمر الثيران والكلاب والغربان وأنا لا أتحرك بل لا أكاد أنظر ، ويجيء الليل ولا أذهب إلا حين يتركني الظل ، لا أدري متى رأيت نفسي هناك لأول مرة بل أشك في أني كنت هناك ، أنت تعلم أيَّ تل أعني . إنه ذلك التل الأحمر الذي ينهض ، كأنه تمثال رجل وامرأة ، على كومة «كُوبانو» العتيقة .

فيه قرأت جل ما قرأت وفكرت كل أفكاري ، وفي جميع المتاحف رأيت لوحتي هذه التي رسمتها بنفسي ، أنا ، في لون أسود ، مستلق في الرمل ، وظهري تلقائي ، أعني تلفاءك أو تلقاء من قد ينظر ، وفكرتي طليقة بين عيني والمغرب .

ينادونني من دار «لابنْيا» لعلي أمضي لآكل أو أنام ، وأظن أني أذهب ولكن لا أدري إن كنت باقياً هناك ، وأنا على يقين يابلاتيرو أني الآن لست ها هنا معك ، لا حيث أنا ، ولا في القبر ميتاً ، بل في التل الأحمر الكلاسيكي الرومانتيكي في آن واحد ، أنظر وفي يدي كتابٌ مفتوح ، غروبَ الشمس فوق النهر . . .

٨٥
الخريف



أخذت الشمسُ يا بلاتيرو تتكاسل عن الخروج من مُلاءاتها والزراع يبكرون أكثر منها ، حقّاً الدنيا عارية والجو بارد .

يا لريح الشمال وهي تهب : انظر في الأرض إلى الغصون الساقطة ، والريح من الحدة والاستقامة بحيث إن الأغصان جميعاً متوازية أطرافها إلى الجنوب .

المحراث يمضي كأنه سلاح خشن من أسلحة الحرب ، إلى العمل الفرح من أعمال السلام يا بلاتيرو ، وفي الطريق الضيق الرطب تضيء الأشجار الصفراء بحيوية سيرنا السريع وهي موقنة من الخضرة في كل جانب كأنها نيران رقيقة من الذهب الصافي .

٨٦

الكلب المربوط

دخول الخريف بالنسبة لي يا بلاتيرو كلب مربوط ينبح نباحاً نقيّاً طويلاً في عزلة الفناء أو في عزلة بهو من الأبهاء أو بستان وكلها تأخذ عند المساء في التحول إلى البرد والحزن . . . وحيثما كنت يا بلاتيرو أسمع في هذه الأيام التي تزداد صفرة كل حين الكلبَ المربوط ينبح شمس الغروب . .

ونباحه يثير في نفسي الرثاء على نحو لا يثيره شيء آخر ، إنها اللحظات التي تمشي أثناءها الحياة كلها في الذهب كما يمضي قلب البخيل في آخر فلْس من كنزه الخرب .

والذهب يكاد يوجد مجموعاً في الروح ببخل وقد وضعته في كل مكان ، كما يأخذ الأطفال الشمس بقطعة من المرآة ويحملونها إلى الجدران في الظل ويجمعون في شيء واحد بين صورة الفراشة وصورة الورقة الجافة . . .

العصافير والشحارير تمضي صاعدة من غصن إلى غصن في شجرة البرتقال أو في شجرة طلح وهي تزداد ارتفاعاً مع الشمس ، والشمس تستحيل وردية حمراء . . . والجمال يخلد اللحظة الهاربة كميت لايزال حيّاً إلى الأبد ، والكلب ينبحها في حدة وتوقّد ، ولعلّه يحس بها وهي تموت لدى الجمال . . .

٨٧
السلحفاة الإغريقية

لقيتها أنا وأخي أثناء عودتنا في الظهيرة من الكلية ونحن ماران في الشارع ؛ كان ذلك في شهر أغسطس –في تلك السماء ذات الزرقة القاتمة التي تكاد تكون سواداً يا بلاتيرو :– ولكيلا يشتد بنا الحر جئنا من هناك لأنه طريق أقرب . . . بين الأعشاب التي في جدار مخزن الحبوب ويكاد يشبه الأرض ، يحميه قليلاً ظل الشجرة العتيقة المعهودة لنا بصفرتها وتتلاشى في ذلك الركن وهي ضعيفة من غير سلاح يحميها ؛ أخذناها والقزع يستولي علينا تساعدنا الخادم ، ودخلنا الدار ونحن نلهث من الإعياء ونصيح : سلحفاة ، سلحفاة : ثم غسلناها إذ كانت متسخة جدّاً وخرجت كما تخرج من أوراق التصوير رسوم مذهبة وسوداء . . .

دون خواكين دي لاأوليفا «الطائر الأخضر*» وآخرون سمعوا أصوات السلاحف قالوا لنا إنها سلحفاة إغريقية ، ثم لما درست التاريخ الطبيعي في مدرسة الجزويت لقيت واحدة مثلها في كل شيء مرسومة في الكتاب ولها هذا الاسم ، ورأيتها محنطة في الحاجز الزجاجي وعليها بطاقة تحمل هذا الاسم أيضاً ، وعلى ذلك فلا شك يا بلاتيرو في أنها سلحفاة إغريقية .

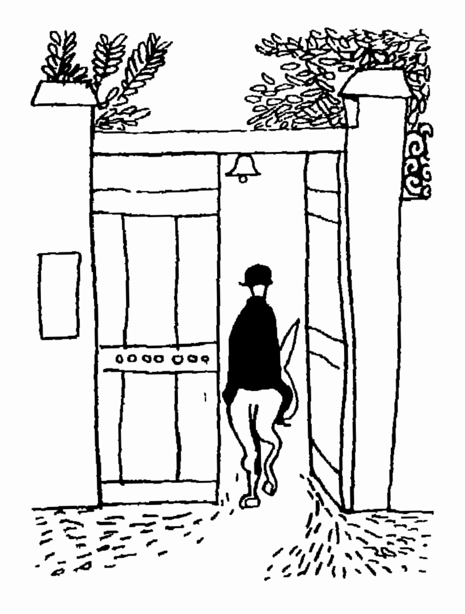
وها هي ذي منذ ذلك الحين ، فعلنا بها الأفاعيل ونحن أطفال : فكنا نشدها من عضلتها المربعة المعينة ونلقي بها إلى «لورد» ونبقيها أياماً كاملة

* لقب له –(ل–ع)

وفمها متجه إلى أعلى ، وذات مرة أطلق «الأصم» عليها رصاصة لنرى مبلغ صلابتها ، فتفجرت قطع الرصاص وانطلقت إحداها فقتلت ذكر حمام أبيض كان يشرب الماء تحت شجرة الكمثرى .

ومضت شهور وشهور دون أن يراها أحد ، ثم إذا بها تظهر ذات يوم في الفحم جامدة كالميّتة ، ومرة أخرى تظهر في القصب . . وأحياناً يدل على إقامتها في مكان من الأمكنة بيضات فارغة ؛ تأكل مع الدجاج والحمام والقنابر ، وأكثر ما يروقها الطماطم ، وأحياناً تشرف على الفناء وتبدو كأنها استخرجت من شيخوختها الجافة الخالدة المنفردة فرعاً جديداً ، وأنها ولدت لتعيش قرناً آخر . . .

٨٨
مساء أكتوبر



انقضت الإجازات وعاد الصبية مع أولى الأوراق الصفراء إلى المدرسة . وحدة . شمس الدار ولها أيضاً أوراق ساقطة تبدو فارغة ، وتصوّت في التوهم صيحات نائية وضحكات بعيدة .

وفوق أشجار الورد التي لاتزال بزهرها يهبط المساء على مهل ، وأضواء الغروب تأسر الورود الأخيرة ، والجنة إذ ترتفع كأنها لهب من العطر نحو حريق المغرب تفوح كلها بورود محترقة . صمت .

وبلاتيرو ، وهو مثلي ضيق الصدر ، لا يدري ما يفعل ، ثم إذا به يقبل نحوي شيئاً فشيئاً ويشك لحظة وأخيراً تغمره الثقة ويطأ الأحجار بجفاف وشدة ويدخل معي الدار . . .

٨٩
أنطونيا

أتى المسيل بماء كان من الكثرة بحيث جعل أزهار السوسن البري وهي زينة ذهبية لحوافيه في الصيف تغرق في فُرقة منعزلة ، واهبة التيار الهارب جمالها ورقة ورقة . . .

تُرى من أين ستجتازه «أنطونيا» بثوبها الأحدي؟ الأحجار التي وطئناها غرقت في الوحل ، ومضت الفتاة نحو أعلى الشاطئ إلى سياج أشجار الحور لترى هل تستطيع أن تجتازه من هناك . . . ولم تستطع . . . عندئذ أعطيتها بلاتيرو الظريف .

ولما أكلت أنطونيا اتقدَتْ كلها ، وحمرتها تحرق الشامات التي أذكت الوفاء في محيط نظرتها الحزينة ، لم تلبث أن انفجرت ضاحكة تلقاء شجرة . . .

وأخيراً حَزَمت أمرها ، فنزعت من العشب منديلاً وردياً من نسيج خفيف ، وجرت لحظة ، ثم في براعة النملة ثبتت على بلاتيرو وقد علقت على جانبيه رجليها الصلبتين اللتين تحيطان في نضج لا يرتاب المرء فيه بالدوائر الحمراء والبيضاء للجوارب المسرجة .

وفكر بلاتيرو لحظة ثم وثب وثبة ثابتة استقر بعدها على الضفة الأخرى ، وبعدئذ أخذت أنطونيا التي كان المسيل بين حمرة خجلها وبيني ، ترفُسه في بطنه ، فانطلق يركض في السهل بين الضحك الذهبي والفضي للفتاة السمراء الجريئة .

. . . .كان الجو يفوح بالسوسن والماء والحب ، وبيت الشعر الذي أنطق به شكسبير كليوباترة كان يعصب تفكيري المستدير كأنه تاج من الورود بأشواكها :

يالك من حصان سعيد بحيث تحمل ثقل أنطونيو!

وأخيراً صحت به في غضب وعنف وشدة . . . .

- بلاتيرو!

٩٥

العنقود المنسي

مضينا جميعاً إلى الكروم بعد أمطار أكتوبر الطويلة في الذهب السماوي لليوم المفتوح ، وكان بلاتيرو يحمل طعام العصر وقبعات الصبايا في جانب من الخرج ، ويحمل في الجانب الآخر بلانكا رقيقة بيضاء وردية كزهرة البرقوق .

ما أمتع الريف المتجدد! كانت المسايل فياضة والحقول محروثة في لين ؛ وفي أشجار الحور التي على جوانب الطرق ، ولاتزال مكلّلة بالأزهار الصفراء ، تتراءى الطيور السوداء ، وإذا بالصبايا يجرين واحدة إثر الأخرى وهن يصحن :

– عنقود! عنقود!

في كرمة عذراء عتيقة لا تزال تبدي فروعها الطويلة المتشابكة بعض الأوراق الجافة المسودة والمحمرة كانت الشمس اللاذعة توقد عنقوداً من العنبر صافياً سليماً يتألق كأنه امرأة في خريفها . كلهن رغِبْن فيه! فكتوريا التي أخذته حمَتْه بظهرها ، عندئذ سألتها إياه فأعطتْنيه راضية مختارة في طاعة حلوة تهبها لرجل طفلةٌ في طريقها إلى أن تكون امرأة .

وكان في العنقود خمس حبات ، فأعطيت «فكتوريا» حبة ، وبلانكا حبة أخرى ولولا حبة ثالثة ورابعة «لبيا» وهن الأطفال : أما الحبة الأخيرة فأعطيتها بين الضحكات والتصفيق الجماعي لبلاتيرو الذي أخذها بأسنانه الكبيرة .

٩١
الميرانتي

أنت لم تعرفْه يا بلاتيرو ، فقد حملوه قبل أن تأتي ، منه تعلمْت النُّبْل ، واللوحة التي عليها اسمه لاتزال كما تَرى في مكانها فوق المعلف الذي كان له ، وفيه مقعده وأكلته ورسَنه .

يا له من وهم حين دخل الفناء لأول مرة يا بلاتيرو! كان متموجاً ، وداخلتني معه طاقة من القوة وحيوية الفرح ، ما أجمله! كنت كل صباح أذهب معه مبكراً جدّاً أسفل الشاطئ فيظل يركض في الغُدران ، ويثير جماعاتٍ من الزريقات التي تعيش في الطواحين المغلقة ، ثم يصعد بعدئذ في الجادة ، ويدخل بركض شديد مقفل من الشارع الجديد .

وذات مساء من أمسيات الصيف جاء إلى منزلي المسيو دُوبُون صاحب معاصر الخمور في «سان خوان» وسوطه في يده ، ترك على المسرجة بعض التذاكر ومضى مع «لورد» إلى الفناء ، ولما غربت الشمس بعد ذلك رأيت من النافذة وكأني في حلم ، المسيو دوبون يمر مع «الميرانتي» مربوطاً في عربته وهي تصعد الشارع الجديد في المطر .

لا أدري كم من الأيام مضت كان فيها قلبي مأخوذاً ، كان لا بد من دعوة الطبيب وعولجت بالبروم والأتير وما لا أدريه من أشياء أخرى ، إلى أن أزاله الزمن ، وهو يمحو كل شيء ، من ذاكرتي كما أزال «لورد» والطفلة أيضاً يا بلاتيرو . بلى يا بلاتيرو لو عاش لكنْتَ أنت و«الميرانتي» خير صديقين .

٩٢

صورة

يا بلاتيرو ، في الأخاديد الرطبة اللينة المتوازية في الأرض المظلمة الحديثة العهد بالحرث ويجري فيها مرة أخرى ركض خفيف للبذور المنقولة عن مكانها ، تبث الشمس التي يقصر طريقها عند الغروب ، تيارات طويلة سائلة من الذهب الحساس ؛ والطيور الخائفة من البرد تمضي في أسراب كبيرة عالية إلى «المورو» ؛ وأخفُّ هبة من هبات الريح تعرّي غصوناً كاملة من آخر أوراقها الصفراء .

والفصل يحثنا على أن ننظر إلى روحنا يا بلاتيرو ، ولدينا الآن صديق آخر : الكتاب الجديد المختار الكريم ، والريف يتراءى لنا مفتوحاً لدى الكتاب المفتوح وهو جدير في عُرْيه بالتفكير اللانهائي المتماسك المنفرد .

انظر يا بلاتيرو ؛ هذه الشجرة قد ضمت نومنا منذ أقل من شهر بخضرتها وحفيفها ، وصارت وحدها صغيرة جافة مع طائر أسود بين الأوراق التي بقيتْ لها متطامنة فوق الحميّا الحزينة الصفراء للمغرب السريع .

٩٣
قشرة السمك

مغير يا بلاتيرو من شارع «أثنْيا» قرية أخرى ، هناك يبدأ حي الملاحين فالناس يتحدثون بطريقة أخرى وعبارات بحرية وصور طليقة براقة ، يتألّق الرجال في ملبسهم ويتخذون سلاسل ثقيلة ويدخنون لفائف التبغ الجيدة والغلايين الطويلة .

ما أعظم الفرق بين رجل قنوع جاف ساذج من أهل «كاريتريّا» مثل «رابُوسو» وآخر مرح وأشقر مثل «بيكون» الذي تعرفه من أبناء شارع «ربيرا» .

«جرانا ديلْيا» ابنة قيم كنيسة سان فرنسسكو تقطن شارع «كورال» ؛ إذا هي جاءت يوماً إلى الدار جعلت المطبخ يهتز من حديثها التصويري الحي ، فالخادمات وإحداهن من «لافريسيتا» والأخرى من «مونتوريّو» والثالثة من «هورنوس» يسمعنها وهن في ذهول مما تحكي ، تتحدث عن قادس وجزيرتها وجزيرة طريف وتتكلم عن التبغ والتهريب وأقمشة إنجلترا وجوارب الحرير والفضة والذهب . . . ثم تخرج وهي تدق الأرض بكعبها وتتمايل في مشيتها وقد لفت جسمها الخفيف الممشوق في شال رقيق أسود مهفهف . . . ويظل الخادمات يعلقن على كلماتها ذات الألوان ، وأرى «مونتمايور» ينظر إلى قشرة سمك في الشمس وقد غطى عينه اليسرى بيده . وإذا سألته عما يفعل قال إن «عذراء الكرمل» تتراءى في القشرة تحت قوس قزح بردائها المفتوح الموشى ، عذراء الكَرْمل راعية الملاحين ، وهذا حق قالته «جراناديلْيا» .

٩٤

بنيتو

هذا . . .! . . . هذا! . . .هذا! . . أشد بلاهة من بنيتو! . . .

كدت أنسى من بنيتو هذا ، ولكن الآن يا بلاتيرو في هذه الشمس الرقيقة ، شمس الخريف التي تجعل من سياجات الرمل الأحمر حريقاً ملوناً أكثر منه حارّاً ، فإن صوت هذا الصبي يريني فجأة بنيتو المسكينَ مقبلاً نحونا وهو يصعد في الطريق ومعه حمل من أغصان الكرم المسودّة .

يظهر في ذاكرتي وينمحي مرة أخرى ، لا أكاد أذكره ، وأراه لحظة ، وهو جاف أسمر لبق مع بقية من جمال في قبحه المتسخ ، ولكن حين أروم تثبيت صورته في نفسي يفلت مني كحلم الصباح حتى لقد أنْسى أني فكرت فيه . . ربما كان يعدو في الشارع الجديد وهو عريان في صباح مائي يقذفه الصبية بالأحجار أو في الشفق الشتوي يمضي خافضاً رأسه ويتعثر في الطريق وهو يجتاز طوابي المقبرة القديمة إلى طاحونة الهواء ، إلى كهفه الذي لا يدفع له إيجاراً قرب الكلاب الميتة وأكوام القمامة ومع الشحاذين الغرباء .

. . .أشد بلاهة من بنيتو! . . . هذا . . .

تُرى ماذا أقول يا بلاتيرو ولم أتكلم مع بنيتو إلا مرة واحدة! مات البائس على ما تقول «لاماكاريا» من السكر في دار «لاسْ كولِياس» في مارستان «كاستيللو» منذ وقت طويل وقد كنت يومئذ طفلاً مثلك يا بلاتيرو ولكن هل كان أبله ، كيف ، كيف كان ذلك؟ يا بلاتيرو أنت تعلم ، وقد مات دون أن أدري كيف كان ، أنني ، وأنا على مايقول هذا الصبي ، ابن أم عرفتَه من غير شك ، أشد بلاهة من بنيتو .

٩٥

النهر

انظر يا بلاتيرو كيف ضيقوا على النهر بين المناجم والقلب الشقي والعقبات لا تكاد إبرته الحمراء تأخذ الشمس الغاربة ها هنا وها هنا في تلك الأمسية بين الوحل البنفسجي والأصفر ، ولا تستطيع أن تمضي في مجراه سوى قوارب اللعب ما أتعسه .

كانت السفن الكبيرة المحملة بالخمور ، والمراكب الصغيرة والقوارب والفُلك مثل «اللوبو» و«لاخُوبن إلويزا» ، و«سان كيتانو» الذي كان يملكه أبي ويتولاه «كنتيرو» المسكين و«إستريليا» الذي يملكه عمي ويسيِّره «بيكون» تضع فوق سماء «سان خوان» مزيجاً فرِحاً . من سَواريها وعمدها الكبيرة التي تثير دهشة الأطفال ، وكانت تذهب إلى مالقة وإلى قادس وجبل طارق وهي غريقة مما فيها من أحمال الخمر الثقيلة . . .

وفيما بينها تعقِّد «اللنشات» التموّج بعيونها ورسومها وأسمائها الملونة باللون الأخضر والأزرق والأبيض والأصفر والأحمر . . . والسماكون يحملون إلى القرية السردين والمحار وسمك الحيات وسمك موسى وأبو جلامبو . . . النحاس الأصفر في «ريوتنتو» قد سمم كل شيء ، والحمد لله يا بلاتيرو على أنه بفضل تقزز الأغنياء يأكل الفقراء الآن الأسماك الرديئة . . . ولكن الفلك والمراكب الصغيرة والقوارب قد ضاعت كلها .

يا للبؤس! المسيح لم يعد يرى المياه العالية للمد! كل ما بقي خيط خفيف من دم ميت ، وشحاذ جاف في أسماله ، والتيار الناضب للنهر ،

ولون حديد شبيه بهذا الغروب الأحمر تظهر عليه «لااستريليا» مفككة سوداء متهالكة وقعرها المثلوم إلى السماء ، كأنها شوكة سمك ، في مكانها المحترق حيث يعبث أطفال حرس الحدود كما تعبث الرغبات في قلبي المسكين .

٩٦

الرمانة

ما أجمل هذه الرمانة يابلاتيرو! أرسلَتْها إليّ «أجديلْيا» وقد اختارتها من أحسن ما عندها في وادي «لاسْ مُونْخاس» وما من ثمرة تجعلني أفكر كهذه الثمرة في نضارة الماء الذي يغذيها ، تتفجر عافيةً غضةً قوية ، ألا نأكلها؟ يا بلاتيرو! ما أطيب الطعم المر الجاف للقشرة الشديدة العالقة كالجذر في الأرض! وهاك الحلاوة الأولى ، فلقٌ استحال ياقوتة حمراء صغيرة في الحبات اللاصقة بالجلد ، وإليك يا بلاتيرو النواة المشدودة وهي سليمة كاملة بحجبها الرقيقة ، والكنز اللذيذ لأحجار الكورتز الأرجواني التي تؤكل ، شديدة كثيرة العصير ، كأنها قلب ما لا أدري من ملكة شابة!

خذ ، كل ، ما أغناها! يا للمتعة إذ تغوص الأسنان في النضج الكامل الفرِح الأحمر ؛ انتظر فأنا لا أستطيع أن أتكلم ، يطيب للأكل إحساس كإحساس العين الضائعة في قصر التيه ذي الألوان القلقة للكاليدوسكوب ، انتهت!

لم يعد معي رمّان يا بلاتيرو ، أنت لم تر رمان الفناء الذي في معصرة الخمر بشارع «لاس فُلوريس» ؛ كنا نذهب هناك في الأمسيات . . . وكانت تتراءى من الطوابي المتداعية أفنية الدور في شارع «الكُورال» ولكل منها متعته كما يُرى الريف والنهر ، وتترامى إلى السمع أصوات الأبواق التي مع حرس الحدود وأصوات كير الحداد .

كان ذلك اكتشاف جزء جديد من القرية التي لمست منها ، في شِعرها

اليومي الكامل الشمس تهبط والرمان يتقد ككنوز غنية بجانب البئر في الظل الذي يشتت شمل شجرة التين المليئة بالهلاميات . . .

يا للرمانة ، فاكهة مُغير وزينة تُرسها! ويا للرمان المفتوح للشمس الحمراء ساعة الغروب! رمان حقل «لاس مونْخاس» في وادي «البِرّال» و«سابابيجو» وفي الوديان المستقرة العميقة بمسايلها حيث تبقى السماء الوردية في فكرتي إلى أن يدخل الليل!

٩٧
المقبرة القديمة

أردت يا بلاتيرو أن تدخل ها هنا معي ، ولهذا دسستك بين حمير الحجّار دون أن يراك حفّار القبور ، ها نحن أولاء في الصمت . . . هلّم . . .

انظر ، هذا بهو «سان خوسيه» ، وهذا الركن المظلم الأخضر بشباكه المتداعي مقبرة القسيسين . . . وهذا البهو الصغير المبيض بالجير ويختلط لدى الغروب بالشمس المرتجفة في الساعة الثالثة بهو الأطفال . . . هلم . . . «الميرانتي» . . . و«دنيا بنيتا» . . . وحفرة الفقراء يا بلاتيرو . . .

كيف تدخل وتخرج العصافيرُ أشجارَ السرو ، انظر إليها ما أشد فرحها ، وهذا الهدهد الذي تراه هناك في «المريميه» عشه في الكوة . . . وأطفال الحفار ؛ انظر بأي لذة يأكلون خبزهم بسمن ملون . . . انظر يا بلاتيرو إلى هاتين الفراشتين البيضاوين . . . البهو الجديد ، . . . انتظر . . . ألا تسمع؟ الجلاجل . . . إنها عربة الساعة الثالثة التي تذهب من الطريق إلى المحطة . . . وأشجار الصنوبر ، هذه هي أشجار طاحونة الهواء . . . دنيا لتجاردا . . . الكابتن . . . «الفريد يتوراموس» الذي أحضرتُه أنا في صندوقه الأبيض وهو طفل ، ذات مساء من أمسيات الربيع مع أخي «وبيبي ساينز» و«أنطونيو ربيرو» . . . صه! قطار «ريوتنتو» الذي يمر في القنطرة . . . تابع طريقك «كارمن» المسلولة ذات الجمال يا بلاتيرو . . . انظر إلى هذه الزهرة في الشمس . . . هاهي ذي الطفلة ، زهرة الناردين التي ماتت رغم عينيها السوداوين وها هو ذا أبي يا بلاتيرو . . .

بلاتيرو . . . .

٩٨
لبياني

تنح يا بلاتيرو ودع أطفال المدرسة يمروا :

اليوم هو الخميس كما تعلم وقد جاؤوا إلى الريف ؛ في بعض الأيام يأخذهم لبياني إلى الأب «كاستيلْيانو» ، وفي أيام أخرى إلى قنطرة «أنجُوستياس» وفي أيام ثالثة إلى «بيلا» ، واليوم يعلم الناس أن في «لِبياني» دعابة وهو كما ترى قد أتى بهم حتى «أرْمِيتا» .

وقد خطر لي أحياناً أن لبياني سيعلمك الخشونة -وأنت تعلم تهذيب طفل أو نزع صفة الحمورية عنه على حد ما يقول عمدتنا ؛ ولكن أخشى أن تموت جوعاً ، لأن لبياني المسكين يعمد بدعوى الأخوة في الله ودعوى أن الأطفال يقتربون مني على نحو ما يشرح ذلك بطريقته إلى أن يشاطر كل طفل طعامه في أمسيات الريف الذي يتردد عليه وهكذا يأكل وحده ثلاثة عشر نصفاً .

انظر ما أشد سرورهم وهم يذهبون جميعاً! الأطفال يتدفقون حيوية ، مظهرهم سيئ ، حمر نابضون قد انبعثوا بقوة حادة يفيض بها ذلك المساء الفرح اللاذع من أمسيات أوكتوبر ، ومضى لبياني يختال ببدانته اللينة في حلته القاتمة المزدانة بالمربعات وكانت من قبل «لبوريا» ، تبتسم لحيته الكبيرة التي تتخللها شعرات بيضاء ، مؤملاً في أن يظفر بالأكلة تحت شجرة الصنوبر . . . فكان الريف يلمع في طريقه كأنه معدن متعدد الألوان ، والناقوس الغليظ الذي لا صوت الآن لدقاته القريبة يطن فوق القرية ، كأنه جُعْل كبير أخضر ، في برج الذهب الذي ترى منه البحر .

٩٩

الحصن

ما أجمل السماء في هذا المساء يا بلاتيرو بضوئها المعدني في الخريف كأنها حسام عريض من ذهب نقي . يروقني أن أجيء إلى هنا ، إذ تتراءى من هذا الطريق في وحدته الشمسُ وهي تغرب دون أن يكدّر صفوَنا أحد ولا تثير قلق أحد . . .

كل ما هنالك دار بيضاء زرقاء بين معاصر الخمر والجدران المتسخة التي تحيط بالقرّاص والفجل حتى ليمكن أن يقال أنه لا يقطنها أحد ، هذا هو الريف الليلي الملائم لحُب «لاكوليلْيا» وابنتها ، هاتان الصبيّتان البيضاوان المتشابهتان تقريباً ، عليهما دائماً الثياب السوداء ؛ في هذه الحفرة مات «بنيتو» وظل يومين دون أن يراه أحد ، وها هنا وُضعت المدافع حين جاء الجند الذين يطلقونها ، وها هنا كان دون «اجناثْيو» الذي رأيته في طمأنينة بما معه من زبيب مهرب ، هذا إلى أن الثيران تدخل من هنا قادمةً من طريق «لاس انجُستياس» ولا وجود حتى للصغار .

. . . انظر إلى الكرمة من خلال العقد الذي يعلو قنطرة الوادي ، وهي حمراء متداعية ، وفي نهايتها أفران الآجر والنهر البنفسجي ، انظر إلى الغدران وحدها ، انظر إلى الشمس الآفلة وهي تتجلى كبيرةً حمراء كأنها إله يمكن النظر إليه ، كيف تستهوي الناسَ جميعاً وتغوص في حدود البحر وراء والبة ، في العمق المطلق الذي يستسلم له العالم ، أعني مغير ، ريفها ، أنا وأنت يا بلاتيرو .

١٠٥
حلبة الثيران القديمة

تمر أمام عيني مرة أخرى يا بلاتيرو في ومْضة ضوء سريعة لا سبيل إلى التقاطها صورةُ تلك الحلبة القديمة ، حلبة الثيران التي احترقت ذات مساء . . . مِن . . . احترقت لا أدري متى . . . ولا أدري أيضاً كيف كانت من الداخل . . . أتذكر أني رأيت –أو هل كان ذلك في رسم من رسوم الشيكولاتة التي كان يعطينيها «مانوليتو فلوريث»؟– كلاباً صغيرة رمادية كأنها من مطاط ألقى بها في الهواء ثورٌ أسود . . . وعزلة مطلقة دائرية مع عشب مرتفع شديد الخضرة . . . كل ما أعلمه كيف كانت من الخارج ، أعني من أعلى ، أي ما لم يكن حلبة . . . ولكن لم يكن فيها أحد . . . جعلتُ أطوف وأنا أعدو بمراقي شجرة الصنوبر لعلي أجد نفسي في حلبة ثيران جيدة حقة كتلك التي في الرسوم ، ولكنها أعلى منها ؛ وفي غروب الماء الذي جعل يأتي من فوق ، نفذ إلى روحي منظرٌ بعيدٌ لخضرة سوداء في الظل ، أعني في برْد السحب ، وأفقُ أشجار الصنوبر يتراءى فوق بريق منفرد خفيف أبيض هنالك فوق البحر . . . .

لا شيء بعد ذلك . . . ما مدى الوقت الذي كنت فيه هناك؟ من انتزعني؟ متى كنت؟ لا أنا أدري ولا أحد خبّرني به يا بلاتيرو . . . ولكن الكلّ يجيبونني حين أحدثهم عنه :

بلى ، حلبة «الكاستيلّلو» هي التي احترقت . . . حينئذ بلى . جاء مغير مصارعو ثيران . . .

١٥١
الصدى

كان المكان من الوحدة بحيث يبدو دائماً كأن أحداً فيه ، والصيادون إذ يعودون من الجبال يمدون خطْوَهم هاهنا ويصعدون في الربى ليتمكنوا من الرؤية البعيدة ، ويقال إن قاطع الطريق «باراليس» الذي يعيش في تلك البقعة يقضي ليله هناك . . . الصخرة الحمراء تلقاء المشرق ، وفي أعلى ربما تراءت عنزٌ ضالة حيال قمر الغروب الأصفر ، وفي المرج غدير لا يجف إلا في شهر أغسطس ، يأخذ قطع السماء الصفراء والخضراء والوردية ويكاد يكون أعمى عن الأحجار التي يلقيها الصبية من أعلى على الضفادع أو لكي يثيروا الماء في دوامة صاخبة .

. . .تذكرت بلاتيرو وأنا عائد في الطريق بجانب شجرة الخرّوب التي تسد مدخل المرج وهي سوداء كلها من خناجرها الجافة ، وأخذت ، وقد ضاعفت فمي بيدي ، أصيح على الصخرة : بلاتيرو .

قالت الصخرة في رد جاف حلّته قليلاً عدوى الحياة القريبة : بلاتيرو .

وعاد بلاتيرو على عجل وقد رفع رأسه وشدّها ثم انبعث كله بحركة من يريد أن ينزع نفسه .

وصحت من جديد نحو الصخرة : بلاتيرو .

فقالت الصخرة مرة أخرى : بلاتيرو .

نظر إليّ بلاتيرو ، نظر إلى الصخرة ، ورفع شفته وراح ينهق نهيقاً لا ينتهي حيال السماء .

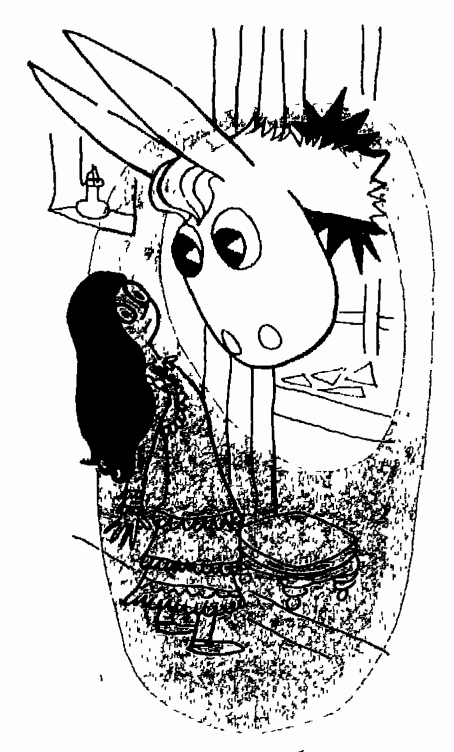
فنهقت الصخرة نهيقاً طويلاً مبهماً معه موازياً لنهيقه وأطول منه آخر الأمر .

وعاد بلاتيرو إلى النهيق .

وعادت الصخرة إلى النهيق .

عندئذ كف بلاتيرو عن النهيق كما ينتهي يوم سيئ في جلبة خشنة عنيدة ، وأخذ يدور بجبهته أو في الأرض ، وهو يريد أن يقطع اللجام ويهرب ويتركني وحدي حتى رحت أهدّئ نفسه بكلمات عذبة ، وأخذ نهيقه شيئاً فشيئاً يبقى وحده في نهقه بين أشجار التين الشوكي .

١٠٢
الفزع



كان ذلك طعامَ الأطفال ؛ والمصباح بضوئه الوردي الفاتر يحلُم فوق غطاء المائدة الجليدي ، وأبر الراعي الحمراء والتفاحات المرسومة تلوّن ببهجة شديدة خشنة ذلك الصمتَ الشعري للوجوه البريئة ؛ الطفلات يأكلن كالنساء ، والأطفال يتجادلون كجماعة من الرجال ، وفي نهاية الغرفة جلست الأم وهي شقراء حسناء تنظر إليهم وهي تبتسم وقد أعطت الطفل الرضيع ثديها ؛ ومن نافذة الحديقة ترتجف ليلةُ النجوم الصافية قاسيةً باردة .

وبينما هم كذلك إذا «ببلانكا» تهرب كشعاع ضعيف إلى ذراعي أمها ، ثم حدث صمت مفاجئ ، وفي جلَبة الكراسي الواقعة راح الأطفال جميعاً يعدُون خلفها في ضوضاء سريعة وهم ينظرون في فزع إلى النافذة .

يا لبلاهة بلاتيرو . لقد وضع في الزجاج رأسه الأبيض وقد تضخّم من أثر الظل والزجاج والخوف ، وأخذ يتأمل وهو هادئ حزين غرفةَ الطعام الحلوة المتقدة .

١٠٣

الينبوع القديم

أبيضُ دائماً على شجرة الصنوبر الخضراء دائماً ، ورديٌّ أو أزرق وهو أبيض في الفجر ، ذهبي أو بنفسجي وهو أبيض ، أخضر أو سماوي وهو أبيض ، في الليل ؛ الينبوع القديم يا بلاتيرو الذي طالما رأيتَني أمكث عنده طويلاً ، يضم في ذاته ، كمفتاح أو قبر ، كلّ رثاء في العالم ، أعني الإحساس بالحياة الحقة .

رأيت فيه البارتنون* والأهرامات والكاتدرائيات جميعاً ، وكلما أيقظني ينبوع أو مزار أو بوابة بالدوام المستمر لجمالها تعاقبتْ في منامي صورتها وصورةُ الينبوع القديم .

منه ذهبتُ إلى كل شيء ، ومن كل شيء تحولتُ إليه ؛ مستقر في مكانه ، يخلّده اتساق سهل ؛ الضوء والنور له كلاهما لا ينقص منهما شيء بحيث يكاد يؤخذ منه في اليد كمائه ، التراث الكامل للحياة ؛ رسمه بوكْلين على «اليونان» ، وترجمه فراي لويس** ، وأغرقه بتهوفن ببكاء فرح ، ووهبه ميجيل أنجيل*** لرودان .

(*) معبد أثينا الشهير -(ل-ع)

(**) فراي لويس دي ليون شاعر إسباني جمع في شعره بين العناصر المسيحية وعناصر النهضة (١٥٢٧-١٥٩١) -(ل-ع) .

(***) ميجيل أنجيل رسام ونحات وشاعر إيطالي وهو في رسمه بلغ الذروة (١٤٧٥-١٥٦٤) (ل-ع) .

هو المهد والعرس ، هو الأغنية والقصيدة ، هو الحقيقة والبهجة ، هو الموت .

ترقد ها هنا ميتةً يا بلاتيرو تلك الليلة كأنها لحم من مرمر بين الظلام وبين الخضرة ذات الجلبَة ، ميتة ينبع معها من رُوحي ماءُ خلودي .

١٠٤

طريق

يا للأوراق التي تساقطت الليلة الماضية يا بلاتيرو . كأن الأشجار انقلبت ، فتاجها في الأرض ، وفي السماء جذورها تتطلع إلى أن تنبت فيها .

انظر إلى شجرة الحور هذه ، كأنها «لُوثيّا» الفتاة المرتعدة في السرك وهي تسكب شعرها الناري على البساط وقد رفعت ساقيها الدقيقتين الجميلتين وجمعت بينهما فتستطيل الحلقة الرمادية .

والآن يا بلاتيرو ، من عُري الغصون قد تنظر إلينا الطيورُ بين الأوراق الذهبية كما ننظر إليها نحن بين الأوراق الخضراء في الربيع ؛ والأغنية الرقيقة التي غنتها الأوراق في أعلى ، إلى أي صلاة جافة مستطيلة قد استحالت في أسفل! هل ترى الريف يا بلاتيرو وكله مليء بأوراق جافة؟ حين نعود هاهنا يوم الأحد المقبل لن نرى واحدةً منها ، لا أدري أين تموت ، لا بد أن الطيور في حبها للربيع قد خبّرتها بسر ذلك الموت الجميل الخفي الذي لا أناله أنا ولا أنت يا بلاتيرو . . .

١٠٥
الصنوبر

ها هي ذي تأتي في شمس الشارع «الجديد» الصبيّةُ التي تبيع الصنوبر ، تأتي به فجّاً محمّصاً ؛ سأشتري لي ولك بدرهم منها يا بلاتيرو .

نوفمبر يجمع بين الشتاء والصيف في أيام ذهبية زرقاء ، الشمس تلسع والأوْردة تنتفخ كأنها مصاصة الدماء من الديدان المستديرة الزرقاء ؛ وفي الشوارع البيضاء الهادئة يمر بائعُ القماش القادم من «لامانْشا» بحمله الرمادي على كتفه ، وبائع «الخردة» محملاً بلون أصفر ولأدواته صليل يلتقط الشمس في كل صوت . . . وطفلة «أرينا» لاصقةً بالجدار ترسم بالفحم خطّاً طويلاً على الجير ببطء ، متماسكة معها سلتها ، وتنادي نداء طويلاً معبراً : الصنوبر المحمّص . . .

يأكله العرسان معاً على الأبواب ، وهم يتبادلون المنتقى من اللباب بين ضحكات اللهب ؛ والأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة يشطرونه على الأعتاب بحجر . . . أذكر أننا ، في سن الطفولة كنا نذهب إلى أشجار البرتقال في «مارْيانو» و«لوس أرْيوس» في أمسيات الصيف ، وكنا نحمل معنا منديلاً فيه صنوبر محمّص ، وكان أملي أن يكون معي سكين نشطره بها ، سكين تنتهي بعرق لؤلؤ ، مصنوعة على شكل سمكة ، عيناها من

الياقوت يتراءى من خلالها برجُ إيفيل* . . .

ما ألذ الطعمَ الذي يتركه في الفم الصنوبر المحمص يا بلاتيرو ، يهب قوة وتفاؤلاً ، يحس المرءُ معه باليقين في شمس الفصل البارد ، كأنه قد صار أثراً خالداً ، ويمشي بجلبة ، ويحمل ثياب الشتاء دون أن تثقله ، بل قد يجاري المرءُ «ليون» يا بلاتيرو أو «المانْكيتو» غلامَ العربات . . .

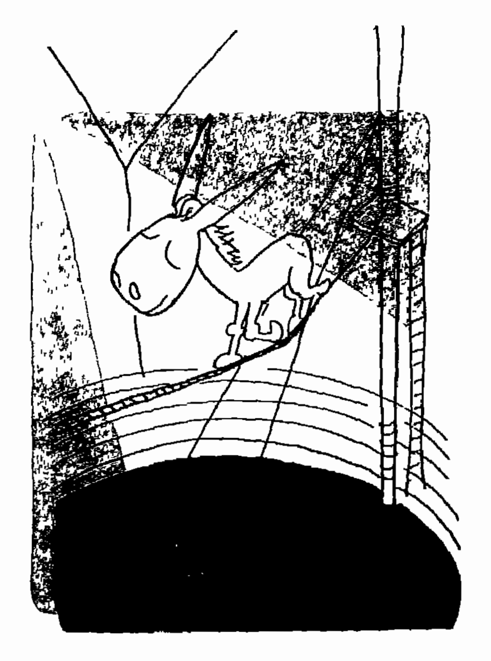
(*) البرج المشهور الذي بناه المهندس الفرنسي جوستاف إيفيل في باريس سنة ١٨٨٩ (ل-ع)

١٠٦
الثور الهارب

حين وصلْت مع بلاتيرو إلى حيث أشجار البرتقال كان الظلُّ في الوادي الضيق الذي كأنه المنحنى الأبيض في منبت مخلب الأسد بغشاه الصقيع ، والشمس لمّا تهب الذهبَ للسماء اللامعة التي لا لون لها والتي يرسم فوقها تلُّ أشجار السنديان أرق أزهاره وأوراقه . . . من حين لآخر ترفع عيني جلبةٌ لعينةٌ عريضة مستطيلة ، إنها الزرازير تطير إلى أشجار الزيتون في أسراب طويلة وهي تغير صوتها في تشكيلات مثالية .

أصفّق . . . الصدى . . . «مانويل» . . . لا أحد . . . وإذا بجلبة كبيرة مستديرة . . . القلب يخفق بإحساس في حجمه كله ، أختفي مع بلاتيرو في شجرة تين عتيقة . . . بلى ها هو ذا يمضي . ثور ملوّن يمضي سيداً للصباح ، يستروح ويخور ، ويحطّم على هواه ، كلَّ ما يلقاه ؛ يقف لحظة في التل ويملأ الوادي في السماء بتأسف قصير رهيب ، والزرازير تواصل من غير خوف سيرَها فوق السماء الوردية بجلبة يخنقها خفقان قلبي . وفي غبار كثيف تمسه الشمس الطالعة بنحاس أصفر يهبط الثور بين الصبار إلى البئر ويشرب قليلاً ثم يمضي إلى الجبل متكبراً ، فارساً ، أكبر من الريف ، في أعلى الطريق ، وقرناه قدْ تعلقت بهما أسلاب الكروم ، ويضيع آخر الأمر بين العيون المتطلعة والفجر المتألق ، وقد صار من ذهب مصفى

١٠٧
قصيدة نوفمبر



في الغروب حين يعود بلاتيرو من الحقل بحِمْله الفضي من أغصان الصنوبر للفرن يكاد يختفي تحت الخضرة المتسعة المستسلمة ؛ خطوه دقيق متحد كأنه خطو آنسة السرك على السلك الدقيق اللاعب . . . كأنه لا يمشي ، وأذناه مدببتان حتى ليمكن أن يقال إنه حلزون في بيته ، والأغصان الخضراء ، وهي أغصان ناهضة ، كأن فيها الشمس والصفاري والريح والقمر والغربان -يا للفزع! ها هنا .

كانت يا بلاتيروا -تتساقط هذه الأغصان مسكينة على التراب الأبيض في طرق الشفق الجافة .

عذوبة باردةٌ سخيّة تكللها جميعاً ، وفي الريف الذي يمتد إلى ديسمبر تأخذ الرطوبة الرقيقة للحمار المحمّل بالثقل ، كما كانت في العام الماضي ، في الظهور بصورة إلهية . . .

١٠٨
الفرسة البيضاء

أجيء حزيناً يا بلاتيرو . . . انظر ؛ بينا أنا أمرّ في شارع «لاسْ فلوريس» هنالك في «لابورتادا» في نفس المكان الذي قتل فيه الشعاعُ طفلين توأمين ، رأيت فرسة «الأصم»* البيضاء ميتة ، يحيط بها أطفال يكادون يكونون عرايا وهم صامتون .

«بوريتا» الخيّاطة التي كانت تمر هناك قالت لي إن «الأصم» قد حمل الفرسة هذا الصباح إلى حيث تقتل وقد ضاق ذرعاً بطعامها ، أنت تعلم أن المسكينة كانت في مثل كهولة «دون خولْيان» وكانت كثيرة التخبط ، لا ترى ولا تسمع ولا تكاد تمشي . . وقريباً من الظهر كانت الفرسة مرة أخرى عند باب سيدها فما كان منه وقد استولى عليه الغضب إلا أن أخذ وتداً ورام طردها بالضرب ولكنها لم تذهب ، عندئذ شكّها بمنجل فاجتمع الناس ، وبين اللعنات والنكات خرجت الفرسةُ مصعدة في الشارع وهي تعرج وتتعثر ، فلاحقها الصبية بالأحجار والصيحات . . . وأخيراً سقطت على الأرض وهناك أجهزوا عليها . . وإذا بإحساس رحيم يرفرف عليها : «دعوها تُمتْ في سلام » كما لو كنا أنا وأنت هناك يا بلاتيرو ولكن كان الإحساس كالفراشة في وسط ريح عاصفة .

وحين رأيتها كانت الأحجار ترقد بجانبها ، وهي باردة مثلها ؛ كانت

(*) لقب الإنسان -(ل-ع) .

إحدى عينيها مفتوحة كلها ، ولكنها وقد كانت عمياء في حياتها فهي الآن وقد صارت ميتة كأنها ترى ، وكان بياضُها مثل ما يتبقى من ضوء في الشارع المظلم الذي تتراءى فوقه سماء الغروب وهي عالية مع البرد وقد تغشّتها كلها سحب وردية خفيفة . . .

١٠٩
جلبة

حقاً يا بلاتيرو إنهم متعة ، كانت دنيا «كاميلا» في ثيابها البيضاء الوردية تعطي درساً باللافتة المكتوبة وبالقضيب لبهيمة تُقدِّم قرباناً «لسان أنطون» وهو ، أي «ساتاناس» ، يمسك بإحدى يديه زقّاً فارغاً من السلاف ، ويستخرج بالأخرى من جيبه لها صرة من النقود ، أظن أن الأشكال اصطنعها بيبي «الفرخ» وكونشا «الخادمة» التي حملت ما لا أدريه من خلَق الثياب في منزلي ، وكان يتقدمها بيبتو «المصوّر» في ثياب قسيس على حمار أسود وفي يده راية ، وخلفهم سائر أطفال شارع «أغميدو» وشارع «لافوينْتي» وشارع «لاكارّيتيرا» وميدان «لوس اسكريبانوس» وزقاق العم «بدروتيليو» وهم يدقون على الصفيح والجلاجل والمقالي والمهاريس والدسوت باتساق متناغم في قمر الشوارع الممتلئ .

وأنت تعلم أن دنيا «كاميلا» ترملت ثلاث مرات وأنها في الستين من عمرها ، وأن «ساتاناس» وهو مترمل أيضاً وإن كان مرة واحدة ، كان لديه من الوقت ما يستهلك فيه سلافة ستين قطْفة . ما أطرف أن يسمعه المرء في هذه الليلة خلف زجاج الدار المغلقة وهو يرى ويسمع تاريخه وتاريخَ زوجته الجديدة في الصورة وفي الشعر الشعبي .

ثلاثة أيام يا بلاتيرو ستستمر فيها هذه الجلبة ، وبعدئذ ستحمل كلُّ جارة ما لها ، من صليب الميدان الذي يرقص تلقاءه السكارى عند الصور المضيئة ثم يستمر صخبُ الصبية لليالٍ أخرى على نحو أشد ، وأخيراً لن يتبقى إلا القمرُ الممتلئ والشعر الشعبي .

١١٠
الغَجر

انظر إليها يا بلاتيرو . ها هي تأتي أسفل الشارع في شمس النحاس مستقيمة ناهضة ، دون معطف ، لا تنظر إلى أحد . . ما أحسن ما يحمل جمالها الماضي ولا يزال فتيّاً قويّاً ، المنديل الأصفر تشد به وسطها في الشتاء والفستان الأزرق المزركش وعليه بقع ببضاء . . إنها تذهب إلى البلدية تطلب الإذن لها بأن تخيمَ ، كما هو الشأن دائماً ، خلف المقبرة ، أنت تذكر خيام الغجر القذرة بنيرانهم ونسائهم الحسان وحميرهم المحتضرة تعض الموتَ من حولهم .

يا للحمير يا بلاتيرو . . . لعل حمير «لافْريسيتا» ترتعد فرقاً وهي تحس بالغجر من الأفنية السفلى (أنا مطمئن على بلاتيرو لأن الغجر لكي يصلوا إلى مكانه لا بد لهم من أن يتخطوا نصف قرية ولأن «رنجيل» الحارس يحبني ويحبه) ولكن لكي أخيفه على سبيل الدعابة أقول له وأنا أظهر الغضب والحنق في صوتي :

– في الداخل يا بلاتيرو ، في الداخل . . سأقفل الشباك حتى لا يأخذوك . .

وبلاتيرو وهو على يقين من أنه لن يسرقه الغجر يمر راكضاً بالنافذة التي تُغْلَق خلفه بجلبة شديدة من الحديد والزجاج ، ويثب ويقفز من بهو المرمر إلى بهو الأزهار ومن هذا إلى الفناء كأنه سهم يقطع –يا للتخبط . .– في هربه القصير ، الزرقةَ المتشابكة .

١١١

اللهب

ادنُ مني أكثر يا بلاتيرو . هلمّ . . . ها هنا لا داعي للتحفظ ، صاحب البيت يحس بالسعادة وأنت بجانبه لأنه من أصحابك ، «وعليٌّ» كلبه تعلم أنه يحبُّك ، وأنا أقول لك شيئاً يا بلاتيرو . . . ما أشد البرد عند أشجار البرتقال . . . ها أنت تسمع «رابوسو» : أرجو الله ألا يحترق كثيرٌ من البرتقال في هذه الليلة .

ألا تروقك النار يا بلاتيرو؟ لا أعتقد أن امرأة مّا تستطيع أن تقارن جسدها العاريَ باللهب . أيّ شَعْر طليق وأي أذرع وأي سيقان تقوى على مقارنتها بتلك النيران العارية؟ لعل الطبيعة لا تتبدى في شيء أحسنَ من النار ؛ الدار مغلقة والليلة في الخارج وحدها ومع ذلك فكلّما قربنا من الريف يا بلاتيرو قربنا من الطبيعة في هذه النافذة المفتوحة على الغار الضوئي . . النار هي العالم في الدار ، ملوّنةٌ لا تنتهي كدم جرح في الجسم ، تدفئنا وتعطينا قوة مع ذكريات الأهل ، يا بلاتيرو ما أجمل النار . . انظر كيف يتأملها «علي» وهو يحترق فيها بعينيه المفتوحتين المليئتين بالحياة . يا للفرح . . تلفّنا رقصاتٌ من الذهب ورقصات من الظلال ، الدار كلها ترقص وتصغّر وتكبر في لعب سهل كلعب الروس ورقصهم ، تنبعث منها جميع الصور في متعة لا حد لها : أغصان وأطيار ، الأسد والماء ، الجبل والوردة ، انظر نحن أنفسنا نرقص في الجدار والأرض والسقف دون أن نريد .

يا للجنون ويا للنشوة ويا للمجد . . الحُب نفسه كأنه ميت ها هنا يا بلاتيرو .

١١٢
نقاهة

من الإضاءة الضعيفة الصفراء لغرفتي التي أقضي فيها دور النقاهة وهي غضة لينة من البسط والسجاجيد أسمع من الشارع الليلي ، كأني في حلم مرطّب بالنجوم ، مرورَ حمُر خفيفة تعود من الحقل ، وأطفال يلعبون ويصيحون .

يتوهم المرء رؤوساً مظلمة لحمير ورؤوساً دقيقة لأطفال يغنون بين النهيق أناشيدَ عيد الميلاد ببلّور وفضة ، القرية تحس كأنها قد لُفّت في دخان كستناء محمص وفي دخان الزرائب وفي نسمة منازل تغمرها السكينة . .

وروحي تنسكب مطهرة كأن سيلاً من المياه السماوية يتدفق بها من الصخرة التي في ظل القلب . يا لغروب العِتْق والتحرر . . يا للساعة الخالصة الباردة الفاترة في آن واحد ، المليئة بأضواء لا نهائية .

الأجراس في أعلى وفي الخارج تدق بين النجوم ، وبلاتيرو وقد شمله ما شمل غيره ينهق في زريبته التي كأنها بعيدة جداً في هذه اللحظة من السماء وأنا أبكي ضعيفاً متأثراً منفرداً كفاوست .

١١٣

الحمار العجوز

. . وأخيراً يمشي بإعياء شديد .

حتى ليفصل في كل خطوة . . .

(المهر الأشهب للقائد من آل فيليث)

من الشعر الشعبي

لا أدري كيف أنصرف من هنا يا بلاتيرو . من يترك البائس هنا دون مرشد ودون ملاذ؟

كان ينبغي له أن يخرج إلى مذبح البهائم ، أظن أنه لا يسمعنا ولا يرانا ، رأيته هذا الصباح في نفس السياج وقد استضاء حزنه الجاف البائس تحت السحب البيضاء التي يملؤها الذباب بجزر حية في الشمس المشعة ، وهو غريب عن الجمال المعجز في يوم الشتاء ، دارَ ببطء كأنه لا اتجاه له ، تعرج أرجلُه كلها وعاد مرة أخرى إلى نفس المكان ، فلم يفعل أكثر من تغيير جانب فقط ، وفي هذا الصباح كان ينظر إلى المغرب والآن ينظر إلى المشرق .

يا لغل الشيخوخة يا بلاتيرو! ها هو ذا صديقك البائس طليق لا وجهة له! وإن كان الربيع يقبل نحوه . أم أنه ميت مثل «بيكر»* ولا يزال قائماً مع ذلك؟ في استطاعة طفل أن يرسم محيطه الثابت فوق سماء الغروب .

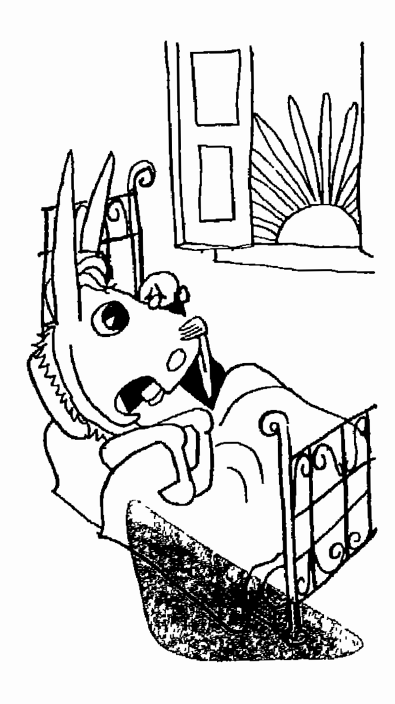
(*) حوستاف أدولفو بيكر شاعر إسباني رومانتيكي (١٨٣٦-١٨٧٠) (ل-ع)

ها أنت تراه . . . أردتُه أن يندفع لا أن ينتزع نفسه . . .

لا يلتفت إلى الدعاء والنداء . . . كأن حشرجة الموت قد زرعته في الأرض يا بلاتيرو ، سيموت من البرد في هذا السياج العالي ، في هذه الليلة التي مرت بها ريح الشمال . . .

لا أدري كيف أنصرف من هنا . . . ولا ماذا أفعل يا بلاتيرو . . .

١١٤
الفجر



في الأسحار البطيئة للشتاء إذ ترى الديكةُ اليقظةُ الورودَ الأولى للفجر وتحييها بأناقة ، ينطلق بلاتيرو ، وقد تعب من النوم ، في نهيق طويل . ما أعذب صحوه البعيد في الضوء السماوي الذي يدخل من شقوق الغرفة . . وأنا أيضاً إذ أرغب في النهار أفكر في الشمس من فراشي اللين .

وأفكر فيما قد كان يكون من أمر بلاتيرو المسكين لو أنه بدلاً من أن يقع في يديْ شاعر وقع في يدي واحدٍ من هولاء الفحامين الذين يمضونَ ليلاً في الصقيع القاسي للطرق المنعزلة ليسرقوا صنوبرَ الجبال ، أو يدي واحد من أولئك الغجر القذرين الذين يرسمون على الحمير ويعطونها سم الفأر ويضعون في آذانها الدبابيس حتى لا تسقط .

بلاتيرو ينهق مرة أخرى . هل يعلم أني أفكر فيه؟ ماذا يعنيني؟ في رقة الشروق تذكُّره يروقني كالفجر ذاته ، وله ولله الحمد زريبة ناعمة لينة كأنها مهد ، محبوبة كأنها تفكيري .

١١٥
زهيرات

إلى أمي .

قالت أمي إنه لما ماتت الأم «تيريزا» احتضرَتْ وهي تهذي بالأزهار ، لا أدري يا بلاتيرو بأي ترابط مع النجوم ذات الألوان التي من لون حلمي حينذاك وأنا طفلٌ صغير يَخطر لي كلما تذكرْت ذلك أن أزهار هذيانها كانت أزهار رعي الحمام الوردية الزرقاء البنفسجية .

لا أرى الأم تيريزا إلا من خلال البلّور الملون لشباك البهو الذي أنظر منه في الزرقة أو الحمرة إلى الشمس والقمر وهو يميل من غير كلال على الهضاب السماوية أو على العُروش البيضاء ، والصورة تدوم دون أن أدير وجهي -لأني لا أذكر كيف كانت- تحت شمس العصر في شهر أغسطس أو تحت العواصف المطيرة في شهر سبتمبر .

وكانت في هذيانها على ما تقول أمي تنادي ما لا أدري من بستانيٍّ لا تدركه الأبصار يا بلاتيرو . مهما كان من أمر فقد كان لا بد من حملها بعذوبة في طريق من الأزهار ورعي الحمام ، ومن هذا الطريق تتحول في ذاكرتي إليّ بحيث أبقيها على هواها في إحساسي العزيز رغم بعده عن قلبي كأنها بين تلك الطرق الرقيقة التي كانت تجتازها ، وكلها نابتة بالزهيرات أخوات أزهار عباد الشمس الساقطة من البستان والأضواء الهاربة لليالي وأنا طفل .

١١٦
عيد الميلاد

يا للشمعة في الريف . . .! إنه مساء ليلة عيد الميلاد ، ولا تكاد الشمس الكثيفة الضعيفة تضيء في السماء الفجة التي لا سحب فيها وكلها رمادية بدلاً من أن تكون زرقاء مع صفرة لا تنتهي في أفق الغروب . . وفجأة تشب طقطقة حادة لغصون خضراء تأخذ في الاتقاد ، ثم الدخان المشدود الأبيض كالسمور الأبيض وأخيراً اللهب الذي ينقي الدخان ويملأ الهواء بألسنة صافية موقوتة كأنها تلعقه .

يا للّهب في الريح! أرواح وردية وصفراء وزرقاء تضل حيث لا أدري وهي تثقب السماء السرية السفلى ، وتدع في البرد رائحة جذوة متقدة! ياللريف الهادئ الآن في شهر ديسمبر! يا للشتاء مع الحنان! ويا لليلة عيد الميلاد للسعداء!

أزهار الشّعر المجاورة تتبعثر ، والمنظر من خلال الهواء الحار يرتجف ويتطهر كما لو كان من بلّور دائر ، وأطفال صاحب الدار الذين ليس لديهم صور الميلاد يحومون حول الشمعة وهم بؤساء في حزن ليدفئوا أيديهم المرتعدة من البرد ، ويلقوا في النار البلوط والكستناء فينفجر وله طلقات .

ويبتهجون بعد ذلك ويثبون على النار التي يصبغها الليل بالحمرة ويغنون :

اتخذي طريقك يا مريم

اتخذ طريقك يا يوسف

وأحضرُ لهم بلاتيرو وأعطيهم إياه ليعبثوا به .

١١٧
شارع لاباربا

ها هنا في هذا المنزل الكبير الذي هو الآن مركز للشرطة وُلِدْتُ أنا يا بلاتيرو ، ما أشد ما كان يروقني وأنا طفل وما أجمل ما كانت تبدو لي هذه الشرفة الفقيرة وهي من طراز مدجن في أسلوب المايسترو «جارفيا» بنجومها البلّورية ذات الألوان! انظر إلى النافذة يا بلاتيرو ، لازالت تزينها الزنبقات البيضاء والبنفسجية ، والكؤوس الزرقاء المعلقة بالشبكة الخشبية التي اسودت بمرور الوقت وكانت متعة لي في عمري الأول .

يا بلاتيرو في هذا الزقاق بشارع «لاس فلوريس» يخرج الملاحون في الأمسيات بثيابهم المرقعة ذات اللون الأزرق بدرجات متفاوتة كأنهم يخرجون إلى ريف شهر أكتوبر ، وإني لأذكر أنهم كانوا يبدون لي ضخاماً بحيث كنت أرى هنالك بين أرجلهم بحكم ما تعودوه في البحر النهرَ بقطعه المتوازية من الماء والأرض ، هذه جافة صفراء وتلك لامعة ، مع قارب بطيء في الذراع الآخر للنهر يمتع البصر ، والشيات العنيفة الملونة في سماء الغروب . . . وبعد ذلك انتقل أبي إلى الشارع الجديد لأن الملاحين درجوا على أن يسيروا وفي أيديهم أسلحة حادة ولأن الصبية كانوا يكسرون في الليل المصباحَ الذي في مدخل البيت والجرس ، ثم لأن الريح كانت شديدة جدًّا في الزقاق . . .

من الشرفة يتراءى البحر ، ولن تنمحي من ذاكرتي قط تلك الليلة التي صعدوا فيها بالأطفال جميعاً وهم يرتجفون ويتطلعون لرؤية ذلك القارب الإنجليزي الدي كان يشتعل في «لابارّا» .

١١٨
الشتاء

الله في قصره المرمري ، أريد أن أقول إن السماء تمطر يا بلاتيرو ، تمطر ، والأزهار الأخيرة التي تركها الخريف معلقة في غصونها الذابلة تنوء بالماس ، وفي كل ماسة سماء وقصر بلّوري وإله ، انظر إلى هذه الوردة ، في داخلها وردة أخرى من الماء ، وإذا هزها المرء -ألا ترى؟- تسقط منها الزهرة الجديدة اللامعة كأنها روحها وتبقى مبللة حزينة كروحي .

الماء لا بد أن يكون فرحاً كالشمس ، انظر إليه إن لم تصدق ، كأنما يجري تحته الأطفال وهم أشداء يموجون بالألوان وأرجلهم في الهواء .

انظر كيف تدخل العصافير كلها وهي جماعة صاخبة مفاجئة في اللبلاب أو المدرسة يا بلاتيرو كما يقول طبيبك «داربون» . .

السماء تمطر ، ولا نذهب اليوم إلى الحقل ، فهو يوم تأملات ، انظر كيف تجري قنوات الأسطح ، انظر كيف تصفو أشجار الطلح وهي سوداء لكنها لا تزال مذهّبة قليلاً ، كيف يعود إلى الملاحة في المجرى الصغير قارب الأطفال وقد توقف أمس بين الأعشاب ، وانظر الساعة إلى هذه الشمس الموقوتة الضعيفة ، ما أجمل قوس قزح وهو يخرج من الكنيسة ويموت بجانبنا في إضاءته الغامضة .

١١٩
لبن الأتان

الناس يسرعون في المشي ويسعلون في الصمت الذي يسود صباح ديسمبر ، والريح تنقل دقات الناقوس الذي يدعو للصلاة إلى الجانب الآخر من القرية ، وتمضي عربة الساعة السابعة فارغة . . . توقظني مرة أخرى جلبةٌ مرتجفة لحديد النافذة . . . ترى هل ربط الأعمى فيها مرة أخرى أتانه كما يحدث في كل عام .

بائعات اللبن يغدون ويرحن بأباريقهن المصنوعة من الصفيح وقد علقنها على بطونهن ينادين على كنزهن الأبيض في البرد ، هذا اللبن الذي يخرجه الأعمى من أتانه إنما هو للذين يشكون من السعال .

لا شك أن الأعمى باعتباره أعمى لا يرى الخراب الذي يلحق ، إن كان من الممكن ، بأتانه في كل يوم وفي كل ساعة ، كأنما هي كلها عين عمياء لصاحبها . . . ذات مساء مضيتُ أنا وبلاتيرو إلى مسيل «لاس انيماس» ورأيت الأعمى يضرب بعصاه يميناً وشمالاً خلف الأتان المسكينة التي كانت تعدو في المروج وتكاد تكون جالسة في العشب المبتل ، وكانت الضربات تقع على شجرة البرتقال أو على الناعورة أو في الهواء ، وهي أضعف من الأيْمان التي لِغلَظِها من شأنها أن تهوي ببرج الحصن . . . والأتان المسكينة لا تريد أن تحمل مرة أخرى ، وجعلت تتقي القدَر بأن

تصب في الأرض العقيم -كما كان يفعل أونان*- الهبة التي يهبها إياها حمار سفيه . . . والأعمى الذي يحيا حياته المظلمة وهو يبيع للشيوخ لقاء فلس أو لقاء وعد إصبعين من رحيق الحُمُر كان يريد أن تحتفظ الأتان وهي قائمة بالهبة الخصبة ، مصدر دوائه الحلو .

وها هي ذي الأتان تحكّ بؤسها في حديد النافذة ، تلك الصيدلية البائسة لشتاء آخر ، صيدلية الشيوخ المدخنين والسكارى والذين يشكون السعال .

(*) يشير الشاعر إلى قصة أونان التي ورد ذكرها في الإصحاح ٣٨ من سفر التكوين . وكان يهوذا قد قال له «ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها وأقم نسلاً لأخيك . فعلم أونان أن النسل لا يكون له ، فكان إذا دخل على امرأة أخيه أنه الفسد على الأرض لكيلا يعطي لأخيه نسلاً فقبح في عيني الرب ما فعله فأماته أيضاً » (ل-ع) .

١٣٠
ليلة صافية



الأسطح المزخرفة بالشرفات تتخلل السماءَ الزرقاء الفرحة ذات الجليد والنجوم ، وريح الشمال الصامتة تدلّل الكونَ الحيّ بحدتها الصافية .

الخلق جميعاً يعتقدون أن البرد يشملهم فيختفون في البيوت ويغلقونها ، أما نحن يا بلاتيرو فهيا بنا نمضي على مهل ، أنت بصوفك وغطائي وأنا بروحي في القرية النقية المنفردة .

يا لها من قوة داخلية ترفعني كما لو كنت برجاً من حجر غليظ ينتهي بفضة صافية! انظر ما أكثر النجوم! إنها لكثرتها تصيب من يراها بدُوار ، كأن السماء عالم من الأطفال يصلي للأرض صلاة حارة من حب مثالي .

يا بلاتيرو يا بلاتيرو : وددْتُ لو أهب كل حباتي وأطمع في أن تهبَ حياتك من أجل نقاء هذه الليلة العالية من ليالي يناير ، الليلة الوحيدة الصافية القاسية!

١٢١
تاج من البقدونس

ترى من يسبق؟

كانت الجائزة كتاب رسوم تلقيته من فينا .

ترى من يسبق إلى أزهار البنفسج؟ . . .

واحد . . . اثنان . . . ثلاثة!

انطلقت الصبايا يجرين في جلبة فرحة بيضاء وردية تلقاء الشمس الصافية ، وما هي إلا لحظة حتى سمعت في الصمت الذي جعل يفتحه الجهد الأصم لصدورهن الدقات البطيئةَ للساعة التي في برج القرية والطنين الدقيق لذبابة في تل أشجار الصنوبر الذي يغمره السوسنُ الأزرق ، ومجيء الماء إلى الجدول . . . وصلن أولاً إلى شجرة البرتقال وقت أن أصابت بلاتيرو الذي كان يسترخي هناك عدوى اللعب منهن ، فانضم إليهن في عدوه الحي ؛ على أنهن خشية أن يتأخرن لم يرفعن صوتاً بالاحتجاج بل لم يضحكن . . . وجعلتُ أصيح : الرابح بلاتيرو! الرابح بلاتيرو .

نعم لقد سبقهن بلاتيرو إلى البنفسجات وظل هناك يتقلب في الرمل . . . ورجعن وقد علا صوتهن بالاحتجاج وهن مكدورات ، يرفعن جواربهن ويجمعن شعرهن ويقلن : هذا لا يعتد به! هذا لا يعتد به! كلا! كلا كلا! ، هيا!

قلت لهن إن هذا السباق ربحه بلاتيرو ، ومن الإنصاف أن ينال جائزة على أي وجه ؛ ويحسنُ وبلاتيرو لا يقرأ أن يظل الكتاب لسباق آخر يقمن

به ، ولكن ينبغي أن يُعطى بلاتيرو جائزة .

فأخذن وهن على يقين مس الكتاب يثبن ويضحكن وقد علت وجوهَهن الحمرة وقلن :

بلى! بلى! بلى!

عندئذ ذكرت نفسي وخطر لي أن خير جائزة لبلاتيرو إنما هي في جهده ، كما أن خير جائزة لي إنما هي في أشعاري ، ثم عمدت إلى قليل من البقدونس أخذتها من الصندوق الذي على باب ربة الدار وصنعتُ منه تاجاً وضعته على رأسه تكريماً له قصيراً في أقصى درجاته ، كتكريم واحد من أبناء إسبرطة .

يا لها من أمنية تلك التي عند الأطفال يا بلاتيرو ، لم يكن من المستطاع تنويمهم وأخيراً غلبهم النوم ، أحدهم في كرسي والثاني على الأرض قرب المدخنة ، «وبلانكا» في مقعد واطئ ، «وبيبي» في قاعدة النافذة ورأسه على مقابض الباب ، ولم يمر الملوك . . . والآن في نهاية هذه اللوحة الخارجية للحياة يحس المرء كأن نومهم جميعاً ، وهو حي وسحري ، قلب كبير مليء وسليم .

قبل العشاء صعدْت معهم جميعاً ، يا لها من جلبة ، على الدرج الذي يخشونه في ليال أخرى ، قالت «بلانكا» وقد أخذْتها بيدي في شدة : «أنا لا أخاف من السطح يا بيبي ، وأنت؟» ووضعنا أحذيتهم جميعاً في الشرفة بين الليمون ، والآن يا بلاتيرو هيا بنا نلبس أنا وأنت «ومونتمايور» «وماريا تريس» «ولوليتا وبريكو» ، نلبس الملاءات والأغطية والقبعات القديمة ؛ وعند الساعة الثانية عشرة نمر من أمام نافذة الأطفال في موكب من الثياب التنكرية والأضواء ، ونحن ندق المهاريس والطبول وننفخ في البوق الذي في الغرفة الأخيرة ، على أن تتقدم معي وسأكون أنا «جاسبار» وأحمل لحى بيضاء من ألياف الكتان ، وتتخذ أنت مئزراً من راية كولومبيا التي أحضرْتها من منزل عمي القنصل . . . وما أن يستيقظ الأطفال على حين غرة والنوم لايزال معلقاً بالعيون التي تنظر في ذهول حتى يتطلعوا وهم في خلَق الثياب إلى الزجاج خائفين يروعهم ما يرون ، وبعد ذلك نظل في منامهم طوال

السحر ، وفي الصباح حين يتأخر الوقت تُعشي أبصارَهم السماء الزرقاء من المنافذ والشقوق فيصعدون دون أن يُتموا لبس ثيابهم إلى الشرفة ، وهم حينئذ أرباب الكنز كله .

في العام الماضي ضحكنا كثيراً ، وسترى مبلغ متعتنا هذه الليلة يا بلاتيرو ، يا بعيري!

١٢٣
جبل الذهب*

هو اليوم «منتوريوّ» ؛ التلال الحمراء التي تزداد كل يوم بؤساً من حفر الحفارين تبدو حين ينظر المرء إليها من البحر كأنها من ذهب ، وعلى هذا الوجه اللامع العالي سماها الرومان كذلك . منه يمضي المرء إلى طاحونة الهواء أسرع مما يمضي في المقبرة ، وحيثما نظر المرء رأى أطلالاً ، وفي كرومه يستخرج الحفارون عظاماً ونقوداً وجراراً كبيرة .

. . . .كولون** لا يستهويني كثيراً يا بلاتيرو ؛ إذا كان قد توقف في منزلي ، وإذا كان قد قدّم القربان في «سانتا كلارا» وإذا كانت هذه النخلة أو تلك المحلة ترجع إلى أيامه . . . فإنه قريب ولا يوغل في الماضي ، وأنت تعلم الهديتين اللتين أتى بهما لنا من أمريكا ، أما الذي يروقني أن أحس بهم من تحتي ، كأنهم جذر قوي ، فهم الرومان الذين صنعوا ملاط الحصن الذي لا يوجد معول ولا مطرقة تحطمه ، ولم يكن من المستطاع أن تنفذ فيه دوارة الهواء التي على شكل اللقلاق .

لن أنسى قط اليوم الذي عرفتُ فيه وأنا طفل هذا الاسم : مُنْس – أرْيوم ، فقد شرّفني عند ذلك «المنتريو» وإلى الأبد ؛ وحنيني في خير صورة ، على ما به من حزن في قريتي الفقيرة ، وجدَ في ذلك خداعاً لذيذاً . تُرى من الذي أحسده بعد ذلك ، أي قِدَم وأي طلل –كاتدرائية كانت أو حصناً–

(*) Mons-Unum

(**) كريستوبل كولون مكتشف العالم الجديد وقد أبحر في ٣ أغسطس سنة ١٤٩٢ من «بالوس» التي ورد ذكرها في الكتاب فهي في إقليم والبة كما مر بمغير قرية الشاعر (ل–ع) .

يستطيع أن يُمسك تفكيري الطويل فوق معارب التوهم ؛ لم ألبث أن وجدت نفسي على كنز لا ينفد ، فمُغير جبل الذهب يا بلاتيرو ، تستطيع فيها أن تعيش وأن تموت وأنت مسرور .

١٢٤
النبيذ

قلتُ مرة يابلاتيرو إن الخبز روح مغير ؛ كلا ، مغير ككوب من زجاج غليظ صاف ينتظر كل عام تحت السماء المستديرة الزرقاء نبيذَه الذهبي ، فما إن يصل سبتمبر إلا إذا أفسد الشيطان العيد ، حتى تمتلئ هذه الكأس إلى نهايتها من النبيذ وتفيض دائماً كأنها قلب كريم .

عندئذ تفوح القرية كلها برائحة النبيذ قلّ كرْمُه أو كثر ، ويُسمع فيها الزجاج ، كأن الشمس توهب في جمال سائل لقاء أربعة دراهم ، في سبيل انحباسها في المكان الشفاف للقرية البيضاء ومن أجل مسرة دمها الطيب ؛ كل بيت في كل شارع يشبه زجاجة على رف «خوانيتو ميجيل» أو رف «ريالستا» إذ يمسه الغروب بالشمس .

أذكُر «ينبوع التثاقل» لترنر* كأنه ملوّن كله في ليمونه الأصفر بنبيذ جديد ، وهكذا مُغير ينبوع نبيذ يأتي ، كالدم ، على كل جرح فيها ، من غير نهاية ؛ نبع لفرح حزين ، كشمس أبريل ، يصعد إلى الربيع كل عام ، ولكنه يهبط كل يوم .

(*) وليام ترنر رسام إنكليزي عرف بتلوينه الصارخ (١٧٧٥-١٨٥١) (ل-ع)

١٢٥
الخرافة

منذ طفولتي أفزع يا بلاتيرو بالعزيزة من الخرافة كا أفزع من الكنيسة ومن الشرطة ومن مصارعي الثيران ومن الأكورديون، فالبهائم المسكينة، بحكم كونها تنطق بحماقات على لسان القصّاص، تبدو لي بغيضةً كما هو شأنها في صمت الحواجز الزجاجية المُنْتنة في درس التاريخ الطبيعي؛ كل كلمة تقولها، أعني يقولها سيد به سعال، أجش الصوت، أصفر، يخيل إليّ أنها عين من زجاج أو خيط لجناح أو سند لغصن زائف، ثم لما رأيت الحيوانات المروّضة في سرك والبة وسرك إشبيلية إذا بالخرافة التي كانت قد بقيت كالخطوط والجوائز، في نسيان المدرسة المتروكة، قد عادت إلى الانبعاث كأنها كابوس بغيض في صباي.

وصرتُ رجلاً يا بلاتيرو فجاء قصّاص من واضعي الخرافات وهو جان دي لافونتين* الذي سمعتني أحدثك عنه مراراً وتكراراً فجعلني آلف البهائم المتكلمة، ورُب بيت له من الشعر يبدو لي أنه صوت حقيقي لأبي زريق أو للحمامة أو للعنز، غير أني كنت دائماً أترك قراءة الحكمة الأخلاقية، ذلك الذنَب الجاف، وذلك الرماد، وتلك الريشة الساقطة في الخاتمة.

ولا يخفى يا بلاتيرو أنك لست حماراً بالمدلول الشائع للفظ ولا

(*) جان دي لافونتين الشاعر الفرنسي الذي ذاعت أقاصيصه الخرافية (١٦٢١-١٦٩٥) - (ل-ع).

بمقتضى التعريف الوارد في قاموس المجمع الإسباني ، نعم أنت حمار على الوجه الذي أدركه وأفهمه ، لك لغتك لا لغتي ، كما أنه ليست لي لغة الوردة ولا لغة البلبل ، وعلى هذا فلا تخشَ من أن أجعلك ، كما قد تظن وأنا بين كتبي ، بطلاً متكلماً في خرافة تقابل فيها تعبيرك المدوي بتعبير ثعلبةٍ أو تعبير أبي حسون لأستخرج بعد ذلك في حروف بارزة الحكمة الأخلاقية الباردة الباطلة من المثل . كلا يا بلاتيرو .

١٣٦
كرنفال

ما أجمل اليوم يا بلاتيرو! إنه اثنين الكرنفال، والأطفال الذين تنكروا برواء في ثياب مصارعي الثيران والمهرجين والمتشدقين قد لبسوا ثياباً عربية كلها موشاة بالذهب في ألوان حمراء وخضراء وبيضاء قد أثقلت بالزركشات العربية .

ماء وشمس وبرد . وجذاذات الورق المستديرة الملونة ندور على التوالي بالإفريز في ريح المساء الحادة ، والأقنعة المتجمدة تصنع من كل شيء جيوباً للأيدي الزرقاء .

ولما وصلنا إلى الميدان إذا بنسوة يلبسن ثياب مجنونات عليهن قمصان بيضاء وشعرهن الأسود المرسل متوج بتيجان من أوراق خضراء ، قد أخذن بلاتيرو في وسط حلقتهن الصاخبة ثم أخذن ، وقد التقين بالأيدي ، يدُرْن من حوله في بهجة .

وبلاتيرو وهو متردد يرسل أذنيه ويرفع رأسه ويحاول في حدّة كأنه عقرب تحيط بها النيران ، الإفلات في أي مكان ؛ لكنه ، وهو صغير جداً ، لا تخافه المجنونات ويواصلن الدوران وهن يغنين ويضحكن حوله ؛ فراح الصبية وقد رأوه أسيراً ينهقون لينهق ، عندئذ استحال الميدان كله إلى حفل موسيقي فخور من معدن أصفر ونهيق وضحكات وأناشيد ودفوف ومهاريس . .

وأخيراً إذا ببلاتيرو ، وقد حزم أمره كأنه رجل ، يقطع الحلقة ويجيء

إليّ راكضاً يبكي وقد سقط عنه إطار الزينة ؛ بلاتيرو مثلي لا شأن له بالكرنفالات .

لا نصلح لهذه الأشياء . . .

١٢٧
ليون

أمضي مع بلاتيرو على مهل إلى جانب الطريق ، وفي كل مقعد من المقاعد التي في ميدان «لاس منخاس» المنفرد الفرح في هذه الأمسية الحارة من أمسيات شهر فبراير ظهر الغروب المبكر في لون بنفسجي ممزوج بالذهب على المستشفى ، وحينئذ إذا بي أحس بأن إنساناً معنا ، ولما أدَرْتُ رأسي التقت عيناي بالكلمات : دون خوان . . .

وصفق ليون . . .

نعم إنه ليون وقد لبس ثيابه وتعطر استعداداً لموسيقى الغروب ، بحقيبته الصغيرة ذات المربعات وحذائه ذي الرباط الأبيض والجلد الأسود اللامع ومنديله الحريري الأخضر المرسل ، وتحت ذراعه الصنوج البراقة ، يصفّق ثم يقول لي «كل إنسان ميسر لما خلق له» ، فإن كنت أنا أكتب في الصحف . . . فهو بحاسة السمع التي له ، قادر على . . . «انظر يا دون خوان إلى الصنوج . . . أصعب الآلات . . . الآلة الوحيدة التي يضرب عليها المرء بدون نوتة موسيقية . . .» ولو أراد أن يضايق «موديستو» بحاسة السمع هذه لصفّر القطع الموسيقية الجديدة قبل أن تعزفها الفرقة . «تأمل حضرتك . . لأن كل إنسان ميسر لما خلق له . . حضرتك تكتب في الجرائد . . . في قوة أشد من قوة بلاتيرو . . . ضع يدك هاهنا . . . .»

ثم إذا به يريني رأسه العجوز العاري من الشعر ، وفي وسطه الذي يشبه شمامة عتيقة وجافة . كأنه هضبة قشتالة شثن كبير ، يدل دلالة

واضحة على حرفته القاسية .

يصفق ويثب ويمضي وهو يصفّر مسغماً ما لا أدريه من «باسو دُوبْلي» وهي القطعة الجديدة التي سيعزفها في الليل من غير شك . وفي أثناء ذلك يكثر من تغميض عينيه اللتين عليهما آثار الجدَري ، ولكنه لا يلبث أن يعود ويعطيني بطاقة :

ليون

عميد شباب اللحن

في مغير

١٢٨
طاحونة الهواء

ما أعظم ما كان يبدو لي حينئذ يا بلاتيرو هذا الغدير، وما أعلى ذلك التل من الرمال الحمراء! هل كانت تنعكس في هذه المياه تلك الأشجار، أشجار الصنوبر الشائكة، وتملأ بعد ذلك منامي بصورة جمالها؟ هل هذه هي الشرفة التي نظرْتُ منها إلى أشد المناظر صفاء في حياتي تغشاها موسيقى الشمس التي تأسر الألباب؟

نعم هاهن الغجريات والخوف من الثيران يعود، وهناك أيضاً، كما هو الشأن دائماً، رجلٌ منفرد -هل هو نفسه، أو غيره؟ قابيل سكير، يقول أشياء لا معنى لها، في طريقنا، ينظر بعينه الوحيدة إلى الطريق ليرى هل من أحد يأتي فيه . . . ثم يكف في الحال . . .

هناك الهجران وهناك الرثاء ولكن يا لجدة هذا ويا لحطام ذاك!

قبل أن أعود لأنظر في هذا المكان ذاته يا بلاتيرو خيل إليّ أني رأيته وهو متعة طفولتي في لوحة لكوربيه وأخرى لبوكلين* . . . أردت دائماً أن أرسم رواءه، وهو أحمر، في غروب الخريف، وقد انثنى بأشجاره في الغدير البلّوري الذي يجوّف الرمل . . . ولكن يبقى طلل مزدان بالفجل الحريف،

---

* جوستاف كوربيه رسام افرنسي يعد زعيم المدرسة الواقعية (١٨١٩-١٨٧٧) وارنولد بوكلين رسام سويسري(١٨٢٧-١٩٠١)(ل-ع)

طللٌ ذكراه لا تقاوم الإصرار ، كأنه ورقة من حرير بجانب لهبٍ لامع في الشمس السحرية لطفولتي .

١٢٩
البرج

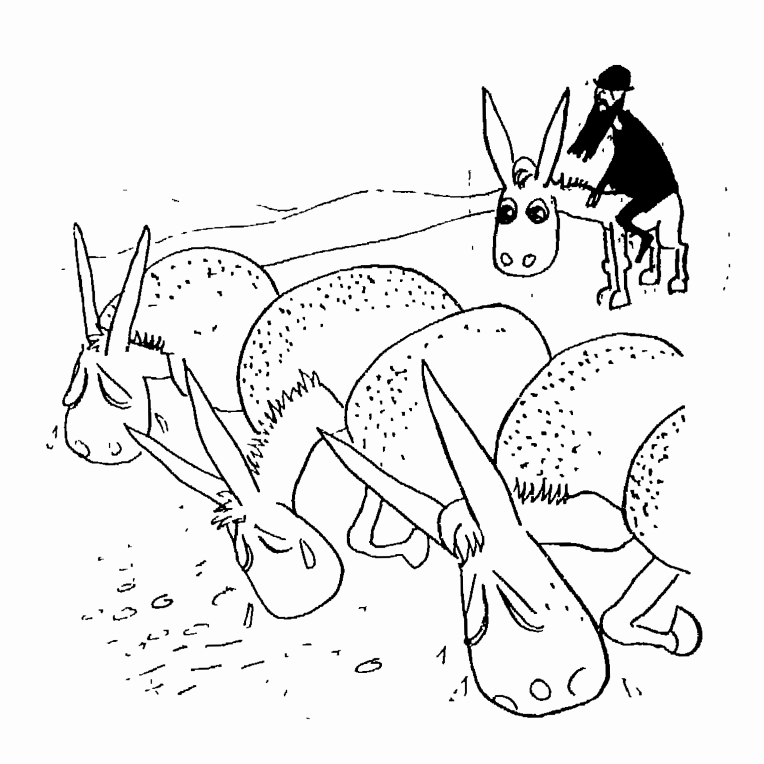
كلا ، لا قِبَل لك بأن تصعد إلى البرج ، فأنت كبير جداً بالنسبة له . لو كان خيرالدا إشبيلية لجاز لك أن تفعل!

ما أشد ما يروقني أن تصعد! من شرفة الساعة تتراءى الأسطح البيضاء للقرية بسقوفها الزجاجية ذات الألوان وأصصها المزدهرة الملونه باللون الأزرق ، ثم من الشرفة الجنوبية التي كسرت الناقوسَ الغليظ حين رفعوه يتراءى بهو «الكاستيلْيو» و«الديثمو» ويتراءى البحر في التموج . وأعلى من ذلك تتراءى من النواقيس أربع قرى والقطار الذي يذهب إلى إشبيلية وقطار «ريوتنتو» ، وعذراء «لا بنْيا» ، وبعد ذلك تهبط ممسكاً بقضيب الحديد وهنالك تمس أقدامك «سانتا خوانا» التي جرحت الشعاع ، وعندئذ سيكون رأسك ، وهو خارج من باب المعبد بين الزليج الأبيض والأزرق الذي تكسره الشمس في ذهب ، مثاراً لفزع الأطفال الذين يلعبون مصارعة الثيران في ميدان الكنيسة حيث يصعد إليك صياحهم من الفرح حاداً صافياً .

ما أكثر الانتصارات التي لا بد من أن تتخلى عنها يا بلاتيرو المسكين! حياتك سهلة كالطريق القصير للمقبرة القديمة .

١٣٠
حمير الرملي

انظر يا بلاتيرو إلى حمير «الكيمادو» ، بطيئة متهالكة يثقلها الحمل الأحمر البارز من الرمل المبلل الذي تحمل فيه مخصرةً من غصن الزيتون الأخضر تُضْرب به ، وهي مخصرة منبتة فيها كأنها في القلب .



١٣١
مقطوعة شعرية غزلية

انظر إليها يا بلاتيرو ، دارَتْ كحصان السرك في الحلبة ثلاث مرات في البستان وهي بيضاء كأنها موجة وحيدة من بحر الضوء الحلو ثم عادت لتجتاز الطابية ، تتمثل لي في شجرة الورد البري التي تقوم هناك في الجانب الآخر وأكاد أراها من خلال الجير . انظر إليها . ها هي ذي مرة أخرى ، الواقع أنهما فراشتان إحداهما بيضاء وهي هذه ، والأخرى سوداء وتلك ظلها .

هناك يا بلاتيرو وجوهٌ من الجمال الذي يبلغ القمة ، ومن العبث أن تحاول وجوه أخرى من الجمال إخفاءه ، وكما أن عينيك هما المتعة الأولى في وجهك ، والنجمة متعة الليل ، فإن الوردة والفراشة هما متعة البستان في الصباح .

انظر يا بلاتيرو ما أحكم طيرانها! ما أمتع طيرانها على هذا الوجه بالنسبة لها! لعله عندها كلذة الشعر عندي ، وأنا الشاعر الحق ؛ كل شيء يكمن في طيرانها منها ذاتها إلى روحها ، وقد توحي إلى المرء بأنه لا يعنيها شيء في العالم ، أعني البستان .

صه يا بلاتيرو . . . انظرْ إليها . ما أمتع أن ينظر المرء إليها وهي تطير على هذا النحو صافية لا لغو فيها!

١٣٢
الموت

لقيت بلاتيرو ملقى في سريرة الذي من القش وعيناه لينتان حزينتان ، فمضيت إليه ودللته متحدثاً إليه وأردت أن ينهض .

فتقلَّب المسكين كله على الفور وترك يداً منحنية . . . لم يستطع . . عندئذ مددْت له يده على الأرض ومسّحت عليه برفق وطلبت له الطبيب .

وما إن رآه «داربون» العجوز حتى فغر فاه الهائل الذي لا أسنان فيه على نحو بلغ به تفاحة آدم وجعل يحرك الرأس المحتقن بالدم على الصدر كأنه رقاص ساعة .

- لا خير يرجى له . إه؟

لا أدري بم أجاب . . . البائس مآله . . . لا شيء . . . إن ألماً . . لا أدري أي جذر مريض . . . الأرض بين العشب .

وعند الظهيرة كان بلاتيرو ميتاً ، والبطن القطني انتفخ كالعالم ، وأرجله وهي متوترة ، لا لون لها ، ترتفع إلى السماء ، وشعره المجعد كأنه شعر من القنّب المتآكل في العرائس القديمة بحيث يسقط عندما تمر اليد به في أسى أغبر . . .

هنالك عند الزريبة التي يسودها الصمت وكانت كلما مررْتُ بها يوقدها شعاع من الشمس يتخللها من النافذة ، أخذَتْ تحوم فراشةٌ جميلة ذات ثلاثة ألوان . . .

١٣٣
حنين

يا بلاتيرو أنت لا ترى . أحق هذا؟

أحقّاً ترى كيف يضحك ماء الناعورة في الحقل صافياً ، بارداً في سلام ، ويطير النحل العامل حول إكليل الجبل الأخضر والبنفسجي والوردي والذهبي في الشمس التي لا تزال توقد التل .

يا بلاتيرو ، أحق هذا؟

أحقّاً ترى حمير الغاسلات حين تمر في الطريق الأحمر للينبوع القديم وهي مكدودة عرجاء حزينة في الصفاء الهائل الذي يوحّد بين الأرض والسماء في بلّور واحد من الرواء .

يا بلاتيرو أنت لا ترى ، أحق هذا؟

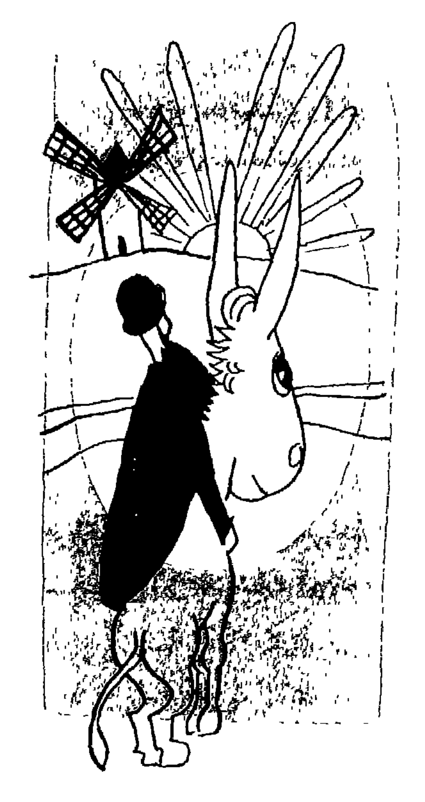
أحقّاً ترى الأطفال وهم يجرون في هرولة بين شجيرات الشُّعر التي تستقر بين الأغصان أزهارها ذاتها وهي سرب رقيق من الفراشات الهائمة البيضاء التي تقطر لوناً بنفسجياً؟

يا بلاتيرو أنت لا ترى ، أحق هذا؟

يا بلاتيرو ، أحقاً ترانا؟ نعم أنت تراني ، أعتقد أني أسمع ؛ نعم نعم أسمع في الغروب العاري نهيقك الرقيق الشاكي يحلوْ لي به وادي الكروم كله . . .

١٣٤

الحمار الخشبي



وضعتُ على الحمار الخشبي سرجَ بلاتيرو المسكين ولجامه وشكيمته وحملْته كله إلى مخزن الحبوب الكبير ، إلى الركن الذي يوجد فيه المهاد المنسي للأطفال . المخزن عريض صامت تغمره الشمس ، يرى منه ريف مُغير كله ، طاحونة الهواء الحمراء إلى الشمال ؛ وفي الأمام جبل «منتيمايور» بصومعته البيضاء تغطيه أشجار الصنوبر ، وخلف الكنيسة حديقة «لا بنيا المختفية ، وفي الغرب يتراءى البحر عالياً لامعاً في تموجات الصيف .

في الإجازات يذهب الأطفال إلى المخزن ليلعبوا عنده ، فيصنعون عربات الكراسي الواقعة ، ويصنعون مسارح بالجرائد الملونة باللون الأحمر ، وكنائس ومدارس .

وأحياناً يمتطون الحمار الذي لا روح فيه ويثيرون بأرجلهم وأيديهم جلبة قلقة وهم يركضون في مرج أحلامهم :

هيا يا بلاتيرو! هيا يا بلاتيرو!

١٣٥
أسى

ذهبتُ هذا المساء مع الأطفال لأزور قبر بلاتيرو وهو في حقل «لابنْيا» أسفل شجرة صنوبر مستديرة أبويّة ، ومن حولها كان أبريل قد زيّن الأرض الرطبة بأزهار السوسن الكبيرَة .

كانت الصفارى تغرّد هنالك في العلياء في القبة الخضراء وكلها ملونة باللون الأزرق كأنه حلم صاف لحب جديد .

والأطفال ، وقد أخذوا يجيئون ، كفوا عن الصياح ، وظلوا هادئين عليهم أمارات الجد ، وعيونهم اللامعة في عيني ، وغمروني بأسئلة متطلعة .

قلت للأرض– بلاتيرو يا صديقي! – إن كنت الآن– كما أظن– في مرج من مروج السماء وتحمل فوق ظهرك الدقيق شباب الملائكة فلعلك قد نسيتني ، خبرني يا بلاتيرو : ألا تذكرني؟

ثم ، وكأنه يجيب عن سؤالي ، إذا بفراشة رقيقة بيضاء لم أكن رأيتها من قبل لا تكف عن الطيران ، كأنها روح ، من سوسنة إلى سوسنة . . .

١٣٦

إلى بلاتيرو في سماء مغير

يا بلاتيرو أيها الحلو الراكض ، يا حماري الذي طالما حملْتَ روحي – روحي وحدها!– في تلك الطرق العميقة طرق أشجار التين والخبازي وزهرة العسل ، إليك هذا الكتاب الذي يتحدث عنك الآن وأنت قادر على فهمه .

يمضي إلى روحك التي تخطو في الفردوس ، من أجل روح مناظرنا المغيرية التي لعلها أيضاً صعدَتْ إلى السماء مع روحك . يحمل على ظهره الورقي روحي التي إذ تسير مصعدة بين العوسج المزهر تزداد كل يوم خيراً وسلاماً وصفاء .

نعم . أعلم أنك عند هبوط المساء إذ أصل بين الصفاري وأزهار البرتقال وأنا على مهل أفكر ، مجتازاً شجرة البرتقال المنفردة إلى شجرة الصنوبر التي تهدهد موتك . ستراني يا بلاتيرو وأنت سعيد في مرجك ، أقف بين يدي السوسن الذي نبت من قلبك المفكك .

١٣٧
بلاتيرو من كرتون

يا بلاتيرو، لما خرجتْ على الدنيا قطعةٌ من هذا الكتاب الذي وضعته في ذكراك أهدتني صديقة لي ولك بلاتيرو من كرتون.

هل تراه من هناك؟ انظر. نصفه رمادي ونصفه أبيض، فمه أسود ملون وعيناه كبيرتان جدًا وسوداوان جدًا؛ محامله من الفراء وبه ستة أغصان عليها أزهار من ورق الحرير، وردية وبيضاء وصفراء، يحرك رأسه ويمشي على لوح ملون باللون النيلي مع أربع عجلات خشنة.

ولكثرة ما أذكرك يا بلاتيرو أخذْتُ أتعلق بهذا الجحش الألعوبة، وما من أحد يدخل مكتبي إلا ويقول وهو يبتسم: بلاتيرو. وكلما جهله أحد وسألني ما هذا؟ قلت: «هذا بلاتيرو».

وقد اعتقدت ذلك وألفت الاسم الذي علق بإحساسي إلى حد أنني أصبحت وأنا في وحدتي، أعتقد أنه أنت بذاتك أراك بعيني. أنت؟ ما أحقر ذاكرة القلب الإنساني! بلاتيرو هذا الذي من الكرتون يبدو لي اليوم بلاتيرو أكثر منك أنت يا بلاتيرو...

مدريد ١٩١٥

١٣٨

إلى بلاتيرو في أرضه

أجيء يا بلاتيرو لحظة لأكون مع موتك ، لم أعش ، لم يحدث شيء ، أنت حي وأنا معك . . أجيء وحدي ، لقد صار الأطفال والطفلات رجالا ونساء . أنجز الخراب عمله في ثلاثتنا - كما تعلم - ونحن على منفاه قائمون ، سادة لأعظم ثروة : ثروة قلبنا .

قلبي! عسى القلب يكفيهم كما يكفيني ، عسى أن يفكروا كما أفكر . لكن كلا ، خير لهم ألا يفكروا . . . وبذلك لايبقى في ذاكرتهم حزن شقائي وشؤمي وحماقاتي .

يالها من فرحة ، وياله من صواب أن أقول لك أنت هذه الأشياء التي لايعرفها أحد سواك . . . سأرتب أفعالي حتى يكون الحاضر حياتي كلها وتكون الذكرى شبيهة بها وحتى يترك لها المستقبل الصارم الماضي الذي في حجم بنفسجة وفي لونها الهادىء في الظل ، وفي عطرها الرقيق .

أنت يابلاتيرو وحدك في الماضي ، ولكن ماذا يعنيك الماضي وأنت تعيش في الخلود وفي يدك ذات الحمرة القائمة التي كأنها في قلب إله جليل ، كما في يدي ، شمسُ كل صباح .

١٣٨
إلى بلاتيرو في أرضه

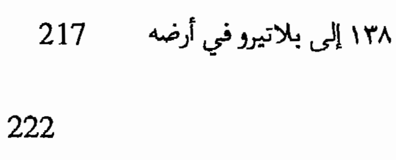
أجيء يا بلاتيرو لحظة لأكون مع موتك ، لم أعش ، لم يحدث شيء ، أنت حي وأنا معك . . أجيء وحدي ، لقد صار الأطفال والطفلات رجالا ونساء . أنجز الخراب عمله في ثلاثتنا - كما تعلم - ونحن على منفاه قائمون ، سادة لأعظم ثروة : ثروة قلبنا .

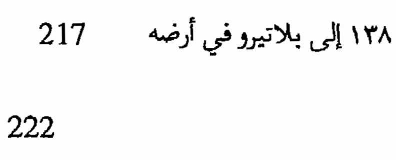
قلبي! عسى القلب يكفيهم كما يكفيني ، عسى أن يفكروا كما أفكر . لكن كلا ، خير لهم ألا يفكروا . . . وبذلك لايبقى في ذاكرتهم حزن شقائي وشؤمي وحماقاتي .

يالها من فرحة ، وياله من صواب أن أقول لك أنت هذه الأشياء التي لايعرفها أحد سواك . . . سأرتب أفعالي حتى يكون الحاضر حياتي كلها وتكون الذكرى شبيهة بها وحتى يترك لها المستقبل الصارم الماضي الذي في حجم بنفسجة وفي لونها الهادىء في الظل ، وفي عطرها الرقيق .

أنت يابلاتيرو وحدك في الماضي ، ولكن ماذا يعنيك الماضي وأنت تعيش في الخلود وفي يدك ذات الحمرة القائمة التي كأنها في قلب إله جليل ، كما في يدي ، شمسُ كل صباح .

فهرس





خوان رامون خيمينث

نوبل 1956

خوان رامون خيمينِث Juan Ramón Jiménez

أو «الأندلسيّ الكوني» شاعر إسباني

حاصل على جائزة نوبل للآداب في عام 1956.

ولد في موغِرْ (وِلبة) ودرس في جامعة إشبيلية..

من أعماله (حدائق بعيدة) ، (مظهر الحزن) ، (الأغنية التائهة) .

يعتبر كتاب أنا وحماري قمة من قمم الأدب الإسباني

دعا فيه الشاعر حماره الفضي المسمى بلاتيرو إلى التأمل معه

في الوردة والفراشة ، والمسيل والتل ، والشفق والغروب

وطاف به في قريته (مُغير) بين ملاعب صباه

ليشهد شهد البائسين وفرح الفرحين ، ولينظر ما في الأحياء

والكائنات من صور التقطها خيال شاعر طابق في كيانه

بين الشعر والحياة

علي مولا


ISBN 978-9933-407-05-6
9789933407056